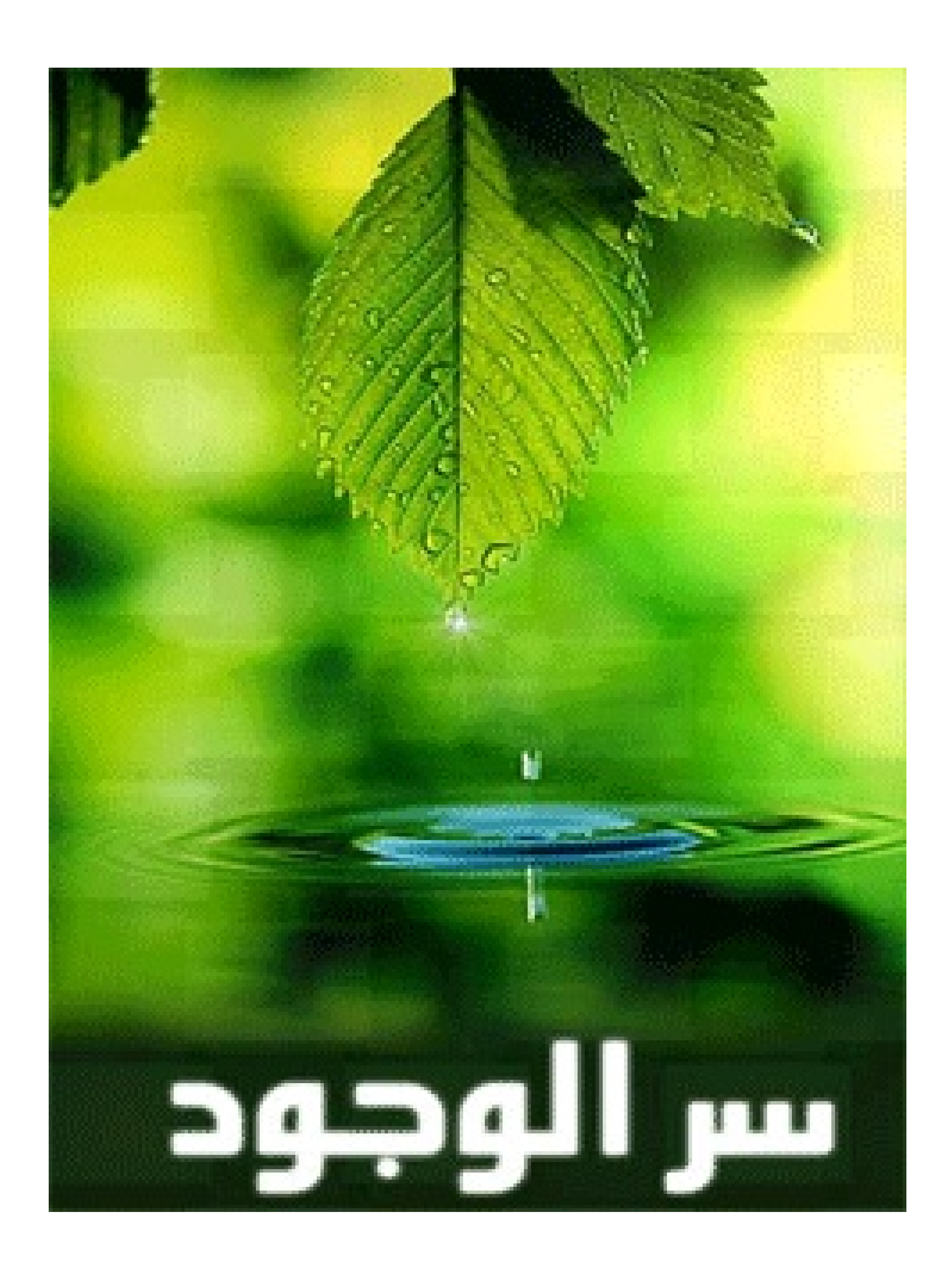

سر الوجود


بسم الله الرحمن الرحیم

سر الوجود

کاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

سر الوجود

اشارة

نام‌کتاب:سِرّ الوجود نام مؤلف:آيـهٔ الله مكارم شـيرازى مشـخصات نشـر : قم مدرسه‌الامام على‌بن‌ابى‌طالب (ع) ۱۳۷۴. موضوع:آثار فلسفى زبان:عربى تعداد جلد:۱

المقدمهٔ

ما نبحثه فى هذا الكتاب

من أين أتينا؟ إلى أين نـذهب؟ أين نحن الآن؟ ما دورنا فى الاحداث؟ وبالتالى ما وظيفتنا؟ ... هذه هى الأسـئلهٔ التى يفكر فيها الإنسان فى بعض الأوقات ومهما قلّ ذكاؤه، غايـهٔ ما فى الأمر أنّ الأعم الأغلب يمر عليها مرور الكرام، وكأنّه ليس هناک من سؤال، وبالعكس فهناك من يتابعها بنوع من الوساوس، بحيث يوردها أحياناً كأسئلهٔ لأجواب لها، على كل حال، لا أظن هناك من شخص غير متعطش لسـماع أجوبهٔ الاسـتفسارات المذكورهٔ مهما كانت قصـيرهٔ. فهل يسعنا الاكتفاء باستمرار الحياهٔ التى تقتصر معانيها على الأكل والشرب والنوم والملبس والمسـكن والقضايا الجنسيهٔ، ولا يعنينا ماذا كنّا قبل ذلك وماذا سنكون؟ أو ليس هذا اللون من التفكير يتناسب وحياهٔ بعض الحيوانات والحشرات؟ وما الداعى لأن يحصر الانسان سر الوجود، ص: ۶ نفسه فى هذا القفص الوضيع والصغير ولا يطلق العنان لفكره ليسبح ويعوم فى هـذا الفضاء الواسع الرحب؟ طبعاً لعلنا لا نمتلك أجوبهٔ واضـحهٔ على جميع هذه الأسـئلهٔ والاسـتفسارات، فقد تنطوى بعضها على هالهٔ من الغموض والابهام، فنكتفى بالردود التى قد لا تخلو من بعض الالتباسات، حيث لا يوجد سبيل آخر بالنسبهٔ للأشـياء التى تمتـد جـذورها إلى الأـزل حيث لايمكنهـا أن تكون على درجـهٔ من الوضوح مقارنـهٔ بالمسائـل المرتبطـهٔ باليوم والأمس القريب، أضف إلى ذلـك فـإنّ سـماع الجواب الغامض كرؤيـهٔ الشبـح من بعيـد كيفما كان أحسن من عـدم الرؤيـهٔ أساساً. لقـد بـذل الفلاسـفهٔ والعلماء جهودهم من أجل التوصل إلى الاجابـهٔ على هـذه الأسـئلهٔ، وقد أسـعدنا الحظ على العثور على سـبل الاجابهٔ بصورهٔ أسـرع وأبسط من خلال الاستعانهٔ بجهودهم وسعيهم. الكتاب الذى بين يديـك- عزيزى القارىء- غيض من فيض الجهود التى بذلناها خلال سـنوات مديدهٔ من أجل الظفر بهذه الأجوبهٔ، إلّاأنّنا نقر ونعترف أنّها تسلط الضوء فقط على بعضها، مع ذلك فهى جهود إيجابيهٔ ذات نتائـج طيبـهٔ، وقـد جهـدنا إلى اعتماد الصـراحهٔ فى الكتاب وإيثارها على ما سواها، إلى جانب الابتعاد عن الألفاظ الطنانـهٔ الرنانهٔ، لنكتفى بحديث القلب فنسـمعه بأذن الروح فنفرق بين الغث والسـمين، وننأى بأنفسـنا بعيداً عن الخيال والاسـطورهٔ ونتحرك من خلال الحق والبحث عنه أملًا فى الوصول إلى الحقيقهٔ. قم- ناصر مكارم الشيرازى

أسرار عظمى

اشارهٔ

هذه الافكار تؤرق الجميع و لا سـيما الشباب سر الوجود، ص: ۹ أننا نبحث عن الجديـد دائماً، وندين إليه بالفضل فى نشاطنا وحيويتنا، ولو كانت الحياهٔ رتيبـهٔ، لسـئمناها وفارقناها مسـرعين. ولعل ذلك هو السـبب فى تجدد أشـكال وصور حوادث الحياهٔ كل يوم، بهدف إلفات نظرنا إليها وجلب انتباهنا نحوها، كما يمكن أن يعزى سـر مضاعفـهٔ النشاط لـدى الشـباب، وأعظم منه لدى الأطفال، إلى ذلك الأمر، حيث يرون أكثر من غيرهم أنّ الدنيا تحمل أكثر من جديد. أنا أيضا حين أفقت لنفسـى آنذاك، وشق فكرى سبيل الاسـتقلال،

وهى الفترة التى اصطلح الناس على تسميتها بالبلوغ، كان كل شيء بالنسبة إليَّ جديداً، إلّاأننى كنت أستغرق أكثر فى «أسرار الوجود»، وكانت هنالك عدّة أسئلة تشغل ذهنى، وكانت تبدو لى تلك الأسئلة بمثابة جبال شماء وخطيرة مرعبة تخترق بقممها الحادة والمرتفعة قلب سماء الفكر البشرى وتغوص فى أعماقه، كنت أشعر بالضبط أنّ أفكارى تجاه هذه الأسئلة بمثابة زورق صغير إضطرب وسط أمواج بحر متلاطم عميق، فأتمنى أحياناً أن تغادر روحى هذا القفص المسمى بالجسد فتعيش الحرية وتحلق مع الملائكة التى تجوب السموات لعلى أظفر بضالّتى هناك وهى الاجابة على هذه الاستفسارات. سر الوجود، ص: ۱۰ حقّاً كانت تلك الاسئلة بمثابة حجر ثقيل تربع على صدرى وأخذ ينهش روحى، لكن كان عزائى فى الأمل بالتوصل إلى الاجابة فى يوم من الأيّام، نعم كنت أعيش بهذا الأمل. والآن اسمحوا لى باستعراض تلك الأسئلة التى تثقل كاهل الروح، لأنى عازم على أن أصور لكم الشعور الذى كان ينتابنى آنذاك. * كنت أتساءل: ما الهدف والغاية من كل هذه الكواكب المضيئة اللامعة وهذه المجرّات والمنظومات والعوالم الضخمة ذات الأسرار العظيمة والتى لا تبدى لنا سوى جانباً من روعة وجودها وتثير لدينا العديد من الأسئلة والاستفسارات وتحيط قلوبنا بهالة من الوسواس والحيرة؟ بل ما هو الهدف الرئيسى من عملية الخلق؟ * ما الهدف من وجودنا فى هذا العالم؟ من أين جئنا؟ وأين سنذهب؟ وما النتيجة المترتبة على ذهابنا وإيابنا؟ لم يكن لدينا أى اختيار فى خلقنا، بدليل إنّنا لم يستشرنا أحد لا فى زمان ولادتنا ولا فى مكانه، ولا فى أى شأن من شؤون وجودنا، وعليه فما دورنا فى هذا الوسط؟! * هل من خالق لعالم الوجود وقد أرساه على ضوء خطة وهدف ثم سينتهى به إلى غاية محددة طبق تلك الخطة المرسومة؟ أم أصبح بهذا الشكل صدفة اثر عوامل غامضة ليست مبرمجة ودونما أى هدف وغاية، وبالتالى فهو يسير نحو العشوائية، بدون خطة ولا فكر ولا هدف؟ سر الوجود، ص: ۱۱ * مسألة الزمان هى الأخرى من الأمور التى كانت تؤرق فكرى، فما هذا الزمان، ومن أين أتى وإلى متى سيكون باقياً؟ وكيف كان العالم قبل إنبثاق الزمان؟ ولو لم تكن هناك كرة أرضية وشمس وقمر، وكنّا نعيش حياة رتيبة فى بقعة من هذا الفضاء اللامتناهى، كيف كنا سنشعر بدوران عجلة الزمان؟ هل كانت هذه الدقائق والساعات تثقل فكرنا فى تلك الحالة؟ * هل حقّاً لدينا مصير معين مرسوم لنا مسبقاً وعلينا التسليم له شئنا أم أبينا؟ فإن كان الأمر كذلك، أفليس من العبث أن نجهد أنفسنا من أجل السعادة والموفقية، وهل يمكن تغيير المصير؟! * اللغز الآخر الذى كان يعكر فكرى ويرهق ذهنى هو التفكير بهذه الروح التى تكاد تكون أقرب إلينا من كل شيء! هذه نماذج من الاسئلة المزعجة التى لا نهاية لها والتى كانت تدور فى خلدى، أسئلة بشأن أسرار خلق الإنسان، والسرّ الذى ينبعث منه الوجود، وهكذا قضية المصير وسائر القضايا من هذا القبيل. نعم، كانت هذه الاسئلة كالسحب المتراكمة التى غطت جوانب فكرى وجعلت تمارس ضغوطها عليه، صحيح أنّى نشأت وسط أسرة دينية، وكنت كالآخرين أملك إيماناً تقليدياً بالبارىء سبحانه، ولكن أنى لى الاكتفاء بهذا القدر المتواضع من الإيمان، والاستسلام لهذه الأجوبة دون قيام أى دليل منطقى عليها؟ وممّا لاشك فيه هو أنّ بروز هذه الأفكار دلالة على تحركة الحياة سر الوجود، ص: ۱۲ وسلوك طريق طويل شاق وخطير.

فترة البلوغ وثورة التساؤلات

الآن وبعد أن بيّنت لكم نبذة من حياتى الماضية، ووقفتم على الأفكار التى كانت تدور فى ذهنى آنذاك، أرى من الضرورة بمكان أن أضيف هذه العبارة وهى أنّ المطالعات اللاحقة دلت على أنّ مثل هذه الأفكار إنّما تحدث لأغلب الأفراد تزامنا مع فترة البلوغ أو تتأخر عنها قليلًا، حيث تكون تلك الفترة قصيرة وعابرة لدى البعض، وبالعكس قد تكون طويلة ومريرة على البعض الآخر. لكن أتعلمون أنّ ظهور مثل هذه الأسئلة فى ذهن الإنسان لا- يدعو إلى أى قلق واضطراب، بل بالعكس فذلك علامة على الاستقلال الروحى والنضج الفكرى ودليل على تفتح استعداداته وقابلياته الباطنية؟! نعم، هذه علامات تبث الأمل فى بلوغ الإنسان مرحلة جديدة من حياته؛ أى أنّ جميع الأفراد الذين يتزامن نضجهم الفكرى مع بداية بلوغهم الجسمى والفسلجى، فإنّهم يعومون فى سنى البلوغ فى بحر من هذه الأفكار، بحيث يتشبثون بكل وسيلة من أجل الخلاص منها- أمّا من يتأخر نضجهم الفكرى فإنّ المدّة قد تطول لتخترق

زوايا أفكارهم مثل هـذه الأسـئلة. وبالطبع فإنّ الأفراد الذين يعيشون حالة طفولية من الناحية الفكرية والنفسية، فإنّهم لا يرون قط حالة النضـج العقلي، فليس هنالـك مثـل هـذه الأسـئلة الـتي تؤرقهم، فهم يعيشون على الـدوام حالـة من الاسـتقرار الممزوجـة بالجهـل، فلا يشـعرون أبداً بحالة من الاسـتقلال سر الوجود، ص: ١٣ الفكرى! على كـل حـال، ينبغى عليكـم ألا تشـعروا بالقلق من ظهور مثل هـذه الأفكار، فهي دلالـة على نضـجكم الفكرى وأنّكم قـد وردتم مرحلـة جديـدة في الحياة، ألا وهي مرحلـة البلوغ الفكرى. فإن راودتكم مثل هـذه الأفكار فاعلموا أنّكم تخطيتم مرحلة التقليد والتبعية ودخلتم مرحلة الاسـتقلال، فينبغى لكم أن تجدّوا وتجتهدوا وبكل هدوء للظفر بالحلول المنطقية والمقنعة لهذه الأسـئلة والاسـتفسارات. طبعاً قضية مراودة هذه الأفكار وإن كانت تدعو للأمل والتفاؤل، إلّا أنّها قـد تشـكل ظاهرة خطيرة إن لم تجد هذه الأسـئلة بعض الأجوبة الصـحيحة، لأنّ الجهد الممتزج بالأمل في هذه الحالة يتحول إلى نوع من الخمود واليأس والتشاؤم، لـذلك يشاهـد العديـد من الشـباب الذين لم يحصـلوا على ردود صـحيحة لهذ الأسـئلة وبغية الهرب من شباك مثل هذه الأفكار، قد لجأوا إلى المسلّيات الخاطئة والإشباع الطائش لغرائزهم المستعرة، في محاولة للحصول على استقرار زائف وكـاذب. على كـل حـال، فمن الطبيعى عنـدما يقتحم الإنسـان وسـطاً جديـداً، فـإنّ كـل شـيء سيكون لـديه مبهمـاً ومـدعاة للتساؤل والاستفسار، فيسعى من خلال ما يملك من فكر لاختراق حجب هذا الابهام والوقوف على الحقيقة، إلّاأنّ حداثة هذه الأجواء إنّما تبدأ حيـن يرد الإنسـان مرحلـة البلوغ، وهنـا يرى كـل فرد العـالم بصـورة جديـدة، وبـالطبع ترافق ذلـك عمليـة انبثـاق مختلـف الأسـئلة والاسـتفسارات، وبنـاءً على هـذا فلا ينبغى لكـم أن تشـعروا بأى امتعاظ من مخالجـة هـذه سـر الوجود، ص: ١۴ الأفكـار لأذهانكم، بل عليكم أن تنظروا إليها بكل تفاؤل وسرور.

كيف نحصل على اطمئنان القلوب

البحيرة الصـغيرة تتحرك أمواجها لأدنى نسـيم سيما إن كانت قليلة العمق سر الوجود، ص: ١٧ لقد بلغت حديثاً، فكنت أشعر بشخصية جديـدة، كانت الدنيا تبدو لى بشـكل آخر، غير أنّها مشوبة بنوع من القلق والاضـطراب، كانت مفردة «الاطمئنان» تبدو لى خيالية ذات لذة ومتعة خاصة، كنت ألهث دائماً نحو الاطمئنان الروحى والاستقرار النفسى، وللأسف لم أذق منها إلّاقليلًا! ولعل هذا هو السر في أنّ هـذه المفردة كانت تحمل عنـدى شيئاً من الـذكريات الأليمـة المختلطة بالأسـى والحزن، كنت أشـعر أحياناً من خلال هامش نتاجات وسيرة بعض العلماء والكتّاب أنّهم يعيشون بروح مطمئنة تفيض عشـقاً للحقيقة وكأنّ سلسـلة أفكارهم قد اتصـلت بموضع آخر، وهذا الركن الوثيق الذى اسـتندوا إليه هو الذى منحهم القوّة والصـمود مقابل تحديات الواقع. كانوا يتمالكون أنفسهم إزاء الشدائد ويتحلون بالشـجاعة والاقتدار في مجابهتهم للصـعاب، حتى أنّهم كانوا يسـتقبلون الموت- رغم ما ينطوى عليه من أسـرار تثير أسئلة مقلقة- بكل رحابـة صدر. كنت أسـتمتع بهذا الاطمئنان العجيب الذى كان يسود حياتهم، كما كنت أغبطهم عليه، إلّاأنّى لم أعثر على بصـيص من هـذا الاطمئنان في روحى كلما تأملت زواياها وبحثت في أحشائها. كأنّى بروحى قـد غرقت في ظلمات دامسة، فكانت تتطلع من تلك سر الوجود، ص: ١٨ الظلمات إلى أشـباح مرعبة ومبهمة مقرونة بمختلف الأسئلة والاستفسارات التى جعلت منها مسرحاً للهجمات، ثم كانت تمحى وتنـدثر وسط تلك الظلمات، كنت أحدث نفسـى، ترى ما الضـير لو أصاب روحى قبس من ذلك الاطمئنان وأضاء كل زواياهـا وطرد إلى الأبـد هـذه الأشـباح المرعبـة، التى تبـدو وكأنّهـا على ربـاط وثيق بتلـك الظلمـات ..؟! كـانت تلـك أعظم أمنياتى ورغباتى الباطنيـة، الامنيـة التى قـد لا أظفر بها حتى في عالم الخيال. أمّا اولئك العلماء فلعلهم ظفروا بذلك في سـنى النضج الفكرى، حتى وفقوا لمـا بـذلوه من جهود متواصلـة، ولعلى كنت أغرى نفسـى بـذلك. مازلت أذكر جيـداً كم كنت قلقاً تلك السـنين وفى أى أفكار كنت أغرق، كنت أشعر أحياناً بأنّ وجودى إزاء تلك الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بأسرار الخلق وشروع واختتام الحياة وقضية المصـير والعاقبة وما إلى ذلك، بمثابة الريشة مهب الريح تتقاذفها هنا وهناك. فمن الطبيعى أنّ «البحيرة الصـغيرة» سـيما إن كانت قليلة العمق تتلاطم لأدنى نسـيم، أمّا البحر الواسع والعميق فيسوده نوعٌ من الاسـتقرار والهدوء الخاص، وليس للعواصف سوى أن تعرقل سـر

الوجود، ص: ۱۹ استقراره الظاهری دون أدنی مساس بعمقه المستقر تماماً. والمفروغ منه أنّ اولئک العلماء الذین یعیشون الاطمئنان الروحی الذی یدعونا إلی التعجب والذهول لدیهم تصور واضح عن الاجابة علی هذه التساؤلات حتی بلغوا هذه المرحلة من السکینة والاطمئنان، فروحهم کالبحار العمیقة التی لا- سبیل إلی العواصف لهز أعماقها والعبث بها (إلّا أنّ ذلک یبدو متعذراً علی الأفراد الضحلین فی بدایة السلوک). لقد آمنوا بأنّ خلق هذا العالم لیس اعتباطاً؛ حیث تفید جمیع الشواهد والقرائن التی تنطوی علیها حوادث هذا العالم المترامی الأطراف وظواهره علی أنّ ذلک الخلق إنّما یستند إلی قدرة مطلقة، وهو وحده الذی بیده أزمّة العالم بأسره، وأمّا القوانین التی تنظم عالم الوجود وتشکل محوره الرئیسی فهی علی درجة من الدقة والنظم والأسرار العمیقة بحیث یحتاج زعماء الفکر والعلماء إلی سنوات مدیدة لسبر أغوارها والوقوف علی جانب من جوانبها، وکلما ازداد العلم البشری وتمکن من کشف بعض أسرار هذا العالم الواسع، تعرّف الإنسان علی مصدر هذا العالم أکثر وتحوّل هذه العلم إلی قبس من نور الإیمان یتخلل القلوب. إنّهم آمنوا بأنّ العقیدة الراسخة والإیمان المحکم الناشیء من تتبع لطائف هذا العالم الضخم وأسراره المذهلة إنّما یملأ القلوب بالعشق والنشاط والحیویة، العشق المرهف للمُبدیء العظیم الخالق الأصلی لهذا العالم الواسع. سر الوجود، ص: ۲۰ إنّهم نظروا إلی جلال الحق سبحانه فذابوا فی عبودیته لیتحرروا من أغلال وقیود ما سواه، عظم ذلک الوجود المطلق فی نفوسهم فصغر مادونه فی أعینهم ومن هنا فإنّ أرواحهم لا تستشعر أی قلق واضطراب اثر فقدانهم لبعض الأشیاء، وإنّهم وبإتکالهم علی قدرة اللّه هبوا بکل شجاعة لمواجهة صعاب الحیاة الدنیا ومشاکلها، وقد وهبهم هذا الإیمان قوّة الأعصاب وضاعف من قدرتهم وطاقتهم بما جعلهم یتغلبون علی کافّة الشدائد، لقد رأوا أنفسهم متصلة بالأبدیة، واعتقدوا أنّها نبعت من هناک وستعود إلی هناک ولذلک لیس لدیهم مفهوم للفناء والعدم الذی یؤرق فکر الإنسان ویعبث بأعصابه. نعم إنّ قطرة ماء وسط صحراء محرقة تزول سریعاً، بینما ستستمر فی وجودها إن کانت متصلة بالبحر حیث تکتسب صبغة الأبدیة. إنّهم یرون الموت نافذة یطلون منها علی عالم جدید، عالم أوسع وألذ وأشد حیویة وأعظم نوراً من هذا العالم الذی نعیش فیه، ویمثّل مرحلة أکمل من هذه الحیاة الدنیا، ومن هنا فهم لم یروا الموت قط، بتلک الصورة المرعبة التی تقشعر لها الأبدان، وقد أصبحت هذه الأفکار جزءً من وجودهم فقد آمنوا بها بکل کیانهم وجوارحهم. إلّا أنّ کل تلک الأمور کانت لا تعنی لی أکثر من سراب فقد کنت حدیث العهد بهذه المفردات. سر الوجود، ص: ۲۱ علی کل حال فقد أدرکت أنّ رمز اطمئنانهم الروحی إنّما یکمن فی هذا الاسلوب من التفکیر، غیر أنّ المؤسف له أنّ ذلک الاسلوب من التفکیر کان متعذراً علیَّ آنذاک ولذلک کنت أشعر بحالة عجیبة من الاضطراب الروحی. کأنّ ناراً شبت فی أحشائی فکانت تحرقنی بسعیرها، کنت کثیراً ما أخلو بنفسی وأبکی، طبعاً لا یسعنی أن أحدد بالضبط مم کان بکائی، أکانت لی ضالة؟ أکان هناک عشق یؤرقنی؟ کانت روحی مضطربة وتبحث عن الهدوء والاستقرار، بَیدَ أنّها لم تظفر به، الأمر الذی کان یزعجنی، فکنت أجهش بالبکاء کالطفل الضائع، نعم کانت الدموع تخفف من معاناتی وتطفیء سعیر النیران الملتهبة فی أحشائی ولو لمدّة قصیرة، فما تلبث مدّة حتی تشب لظی النیران من جدید فتحیط بکل کیانی، کنت أتمنی أن أشعر یوماً بالطمأنینة الروحیة، کنت صلباً تجاه الحوادث المریرة التی کانت تواجهنی فی حیاتی، کما کنت أبتسم للحیاة رغم أحزانها وآلامها، فکنت أواجه المصاعب بکل شجاعة حتی أنی لم أکن أخشی الموت، کان المستقبل یبدو لی واضحاً وخال من الغموض کالماضی، ولکن وکما قلت کنت حدیث التفکیر ولا- تجربة لی. أضف إلی ذلک فإنّی لم أحاول التماس الاطمئنان الروحی فی ظل سلسلة من الوهم والخیال البعید عن الواقع، فکنت أسعی لأن أفهم الواقع کما هو فأظفر فی ظلّه علی ظالتی التی لم تکن سوی الاطمئنان. سر الوجود، ص: ۲۲ نعم، کنت أمتلک الإیمان التقلیدی کسائر الأفراد، کما کان ذلک الإیمان مزیناً ببعض الأدلة المتواضعة التقلیدیة، إلّاأنّ تلک الأدلة لم تکن لتقف بوجه طموحی وتشبع روحی المتعطشة، فالحق أنّ مثل هذه الأدلة لیس من شأنها الصمود أمام الشکوک والوساوس، وهکذا مرّت مدّة علی هذا الاضطراب والقلق ...

الخطوة الأولی

لماذا أفكر؟ وهل يسلب هذا التفكير طمأنينتنا؟ سر الوجود، ص: ۲۵ قلنا آنفا أنّ ذهن كل إنسان له حظ من التفكير حين يطأ مرحلة النضج الفكرى يصبح مسرحاً للهجوم المرعب لمختلف الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بالحياة والموت والماضى والمستقبل، لاسيّما الأسئلة ذات الصلة بأسرار الخلق والمصير وبداية ونهاية العالم، وكنت من بين الأفراد الذين شعروا بكل كيانهم ولمسوا مثل هذا الهجوم، وقد عانيت الأمرين لأتمكن من الظفر بقبس من الحقيقة. حقّاً إنّ هذا الموضوع أمر مهم، فلو كان طرح السؤال سهلًا إلى هذه الدرجة بينما يصعب الحصول على الجواب الذى يمكنه إقناع العقل والقلب؟ لم تتراءى للذهن آلاف الأسئلة حين نهم بطرح سؤال ما، وكأنّ الأمر بمثابة الكيس السحرى الذى لا ينفد مهما أخذت منه، أو كسيل بيوض أسماك البحر، حيث يتفرع مائة سؤال من سؤال واحد، لكن حين العثور على الردود فكأنّنا نريد تجاوز قمة جبل أشم حيث تطالعنا سيل المشاكل والصعاب. أو ليست العلل الرئيسية لهذا الأمر هو أنّ أسئلتنا فى الواقع فهرسة لمجهولاتنا، وعليه فهى كمجهولاتنا لا حد لها ولا حصر، وبالعكس سر الوجود، ص: ۲۶ فإنّ أجوبتنا فهرسة لمعلوماتنا وبالطبع فهى محدودة ولا شىء بالنسبة للمجهولات؟! على كل حال فقد آن الأوان لأن نسلك مرّة أخرى ذات الطريق مع أولئك الذين سلكوا لأول مرّة ذلك الطريق الشائك والملىء بالمنعطفات والذى لامفر من اجتيازه، وممّا لا شك فيه أنّ السير على أى طريق- وعلى غرار أى طريق خطير ومخيف- يبدو أفضل وأكثر عقلانية إذا ما استعنا عليه برفيق ودليل، إننا نروم بذل الجهود والمساعى المتواصلة من أجل التوصل إلى الاجابة على هذه الأسئلة والاستفسارات والألغاز، والسير قدماً بهذا الاتّجاه على ضوء ما نملك من استعداد وقوّة. الخطوة الأولى يثور فى أذهاننا فى الوهلة الاولى هذا السؤال: ترى ما هى الضرورة لأن نجهد أنفسنا بالتفكير؟ لم نخلق لأنفسنا كل هذا العناء عبثاً؟ أو ليس هناك من لا يكلّف نفسه عناء التفكير بمثل هذه المسائل، فهم يردون الدنيا بكل بساطة ويودعونها دون أدنى هم (بالضبط كالشاة!)، لم يكن معلوماً لديهم من أين أتوا، وأين ذهبوا، بل لم يكن لهم من هاجس ودافع للعلم بذلك! إنهم يقولون: ما الفائدة من العلم بالماضى والمستقبل والمبدأ سر الوجود، ص: ۲۷ والمعاد وبداية الخليقة وغايتها كى نطالب أنفسنا بالعلم بها؟ ليس هنالك من يعلم ما هى الغاية. كل ما هنالك هو تحذير من احتمال .. ونحن لا نعير آذاناً صاغية لهذا الصوت. ليس للدنيا من معنى لدى هؤلاء سوى التمتع باللذات العابرة التى إن لم يدركها الفرد اشتعلت نيران التعطش إليها فى كل كيانه، فاذا أدرك خواءها وأحسّ بالنفور منها وقد يذهل أحياناً لكونها جوفاء لا واقعية لها. اللذات التى تشبه إلى حد بعيد الأعمال الفنية لكبار الرسّامين التى تسحر القلوب وتشد إليها العيون من بعيد، فإن اقتربنا منها لم نجدها سوى قطعة من القماش العادى الذى لا قيمة له، وقد غطتها الألوان والأصباغ!! إلّاأنّ مثل هؤلاء الأفراد حسب تعبير الكاتب «هداية» ليسوا أكثر من أفواه متصلة بالأمعاء ومنتهية بالأجهزة التناسلية، وليس لهم أدنى امتياز على الحيوانات والحشرات التى تتلخص حياتها فى المفردات المذكورة. فهل هنالك عاقل يرضى لنفسه بأن تختصر حياته على هذه الأفعال التكرارية الرتيبة؟ لست أشك أبداً بأنّى لو خيّرت قبل الولادة: هل ترغب بالذهاب إلى الدنيا لتتمتع بهذه اللذات عدّة أيّام فى خضم كل هذه المشاكل والصعاب؟ لاخترت العدم قطعاً على هذا الوجود، بل لسخرت من هذا الوجود. سر الوجود، ص: ۲۸ وعلى فرض قبول تلك الحياة القصيرة مع هذه المشاكل، لطالبت بالطمأنينة قبل كل شى، نعم فالطمأنينة هى تلك النقطة المبهمة التى تنتهى إليها بالتالى كافة جهودنا ومساعينا، أو على الأقل نبذلها من أجل ذلك الهدف، والحق أنّ هذه الطمأنينة وهذا الهدف الأصلى للجهود والمساعى وهذه الضالة النهائية للصغير والكبير إنّما تتعذر ولا تتسنى لأحد فى ظل غياب التفكير، فالقضية وعلى العكس ممّا يتصوره البعض بأنّ عدم العلم والجهل لا يشكل أساس الطمأنينة قط، بل هو أكثر من غيره مدعاة للقلق والاضطراب والخوف والهلع، فالجهل ظلمة، وهل تختزن الظلمة سوى معانى الرهبة والخشية. فالجهّال أشبه ما يكونون بمن تاه فى صحراء واسعة وسط ظلمة الليل الدامسة، وقد غطت السماء السحب السوداء القاتمة، فكانت حوادث الدنيا الغامضة كالعواصف الموحشة والصواعق والسيول والتى تتهدّدهم وتطاردهم فى تلك الصحراء المرعبة، وقد استولى القلق والاضطراب على نفوسهم وارتعشت أبدانهم لأصوات الرعد والبرق والصواعق فلم يكن لديهم من ملاذ آمن لحفظ أرواحهم، ولا طريق يلوح لهم فيسلكوه لينجوا من حيرتهم «۱». أمّا العلم فهو نور مهما كان ضئيلًا، ومن خصائص النور الطمأنينة والهدوء والاستقرار،

على العكس من الظلمة التى تتصف بالقلق والاضطراب، حقّاً إن كان للناس من خشية للظلمة فإنّما يعزى ذلك سر الوجود، ص: ۲۹ إلى ما يكتنفها من إبهام، وإن خشوا من الأموات فبسبب وضعهم المبهم، وكذلك إن خافوا المستقبل فإنّما ذلك معلول للجهل به وما يكتنفه من إبهام، ونخلص ممّا سبق إلى أن الطمأنينة لا تتأتى إلّامن خلال العلم والتوصل إلى الاجابات المناسبة بخصوص الأسئلة الواردة عن المجهولات. وعليه فإن شاهدنا بعض الجهال ممن يعيشون حالة من عدم الاكتراث تشبه الاستقرار ولا يشعرون بأدنى هم وغم، فلا ينبغى أن ننسى أنّ هؤلاء الافراد لا يدرون حتى بجهلهم فهم يعيشون حالة من الجهل المركب، وليس استقرارهم سوى كاستقرار الشاة التى تحمل بقبضة من العلف إلى المسلخ لتنظر سائر القطيع وهى تذبح الواحدة تلو الاخرى دون أن تكترث، فالحق هو أن هذا ليس من الاستقرار بشىء وهو أشبه ما يكون بالتخدير وفقدان الوعى، وإلّا فليس هنالك من طمأنينة وسكينة لمن أحاط خبراً بجهله، وهو يعيش فى دنيا مظلمة مليئة بالأشباح المخيفة، فهم مثقلون دائما بالقلق والاضطراب. وعليه لابدّ لنا من التفكير والتفكير بغية بلوغ الاطمئنان الروحى. نعم، إذا كان من المقرر أن نتخلى عن التفكير، فما فائدة هذا الدماغ والعقل، أو ليس من الأفضل أن نطرحه عنا ونستريح من هذا الحمل الثقيل! ولو تركت يدى وحالها دون توظيفها فى حمل الأشياء، فإنّ وجودها فى بدنى وبهذا الثقل مجانب للعقل والمنطق. لعلك تقول إنّما زودت بهذا العقل والتفكير لأتمتع بصورة أفضل سر الوجود، ص: ۳۰ بلذات الدنيا ومأكولاتها ومشروباتها وملبسها وبالتالى لأستمتع أكثر باللذة الجنسية. أقول: هذا الكلام ليس بمقبول فما زود به البشر من إمكانات عقلية لتفوق بكثير هذا الهدف الصغير والوضيع، فذلك مثل أن تعطى قوة ذرية عظيمة لطفل من أجل تحريك بعض ألعابه التى يستعملها للتسلية. إذن كيفما كان الأمر فأنا مكلّف بالتفكير فى بداية الخليقة ونهايتها وفى الماضى والمستقبل والغاية من الحياة إلى جانب التفكير فى الحياة والموت والمصير والعافية وفى كل شيء. نعم، أنا مطالب قبل كل شيء بالتفكير!

الضالة الكبرى

إنّ الإنسانية لتهرول فى نفق مظلم ليست له نهاية سوى الاضطراب المطلق سر الوجود، ص: ۳۳ جميع الناس ينشدون السعادة ويبذلون جهودهم من أجل تحقيقها، إلّاأنّ أغلب الأفراد عادة ما يلتبس عليهم الأمر فى تفسير هذه المفردة، فلا يستطيعون أن يحددوا بالضبط ما هى هذه السعادة التى يلهث لتحقيقها الجميع؟ بالمناسبة كيف يبحث الجميع عن واقع مبهم وغامض يعجزون عن تفسيره؟ الحق أنّ هذه الكلمة لا تنطوى على معنى واحد لدى الجميع، ولعل معانيها تتعدد وتختلف بتعدد الأفراد واختلافهم، فكل يفسّرها كيفما يشاء، إلّاأنّه ورغم كل هذه الاختلافات فى التفسير هناك عامل مشترك قد يتفق عليه الجميع وهو أن السعادة هى الشيء الذى إذا بلغه الإنسان شعر بالطمأنينة والسكينة على مستوى الروح والبدن والضمير، وعليه فلا نرانا نخطىء إذا فسّرنا هذه المفردة بالطمأنينة التى تمثل آثارها العامة وأبعادها المختلفة. إلّا أنّ هذا التفسير يجرنا إلى حقيقة مريرة، لا نملك سوى الاذعان لها رغم صعوبة قبولها وهى: إذا كانت السعادة تعنى الطمأنينة، فلابدّ من الاعتراف بأنّ هذه السعادة مفقودة ولا سيما فى عالمنا المعاصر، لأننا لانجد شخصاً يعيش الطمأنينة على صعيد الروح والبدن والضمير. سر الوجود، ص: ۳۴ يمتاز عصرنا بوفرة كل شيء سوى الطمأنينة، ولا نرانا مخطئين لو أسمينا هذا العصر بعصر القلق والاضطراب، ورغم كل الجهود التى تبذل من أجل بلوغ هذه الضالة النفيسة، إلّاأنّ المسافة بيننا وبين هذه الضالة آخذة بالاتساع يوماً بعد آخر! حيث نطالع علامات انعدام الطمأنينة فى كل مكان؛ فى الحانات ودور البغى ومراكز توزيع المخدرات والمستشفيات النفسية وعيادات أغلب الأطباء، حيث يبحث الكل عن هذه الضالة القيّمة، وحيث لا يتمكنون من الظفر بوجودها الواقعى فإنّهم يلوذون بوجودات زائفة ظناً منهم أنّها هى الطمأنينة. ويبدو أنّ هذه الطمأنينة على درجة من الأهميّة والقيمة لدى الإنسان بحيث يرى نفسه أحياناً مستعداً للتضحية بحياته من أجل تحقيقها، بل قد يقدم أحياناً على الإنتحار من أجل الظفر بها مفتشاً عنها فى العدم بعد أن عجز عن الظفر بها فى نور الوجود (وياله من خيال ساذج!). أمّا «صادق هداية» الذى كان مثالًا صارخاً لعدم الاستقرار والمتعطش للظفر بهذا الاستقرار والطمأنينة، حيث تلمس ذلك بوضوح فى كتاباته وسيرة حياته، (ومن المؤسف له إنّه

ورغم استعداده وطاقته الخلاقة فقد عاش اليأس المطبق فى حياته ونشره بين أتباع مدرسته حتى توفى بتلك الطريقة المفجعة) فقد كتب فى سر الوجود، ص: ۳۵ مقدمة كتابه المعروف (بوف كور): هناك بعض الجروح فى الحياة كالديدان التى تعمل على تآكل الروح ببطء، ولا يمكن البوح لأحد بهذه الآلام ... ولم يتوصل الإنسان لحد الآن إلى دواء لهذا الداء، أمّا الدواء الوحيد الذى يمكن اعتماده بهذا الشأن فهو النسيان من خلال شرب الخمر والنوم الاصطناعى بواسطة الأفيون والمخدرات، إلّاأنّ المؤسف هو التأثير المؤقت لهذه الأدوية فسرعان ما يتضاعف الألم ويشتد بدلًا من أن يسكن ويهدأ. طبعاً هذه الآلام والجروح التى أشار لها «هداية» ليست إلّاأنواع القلق والاضطراب الذى يفرزه الواقع الحاضر وما يكمن خلف كواليس المستقبل المظلم والمجهول، ومن النماذج المتكاملة لهذا الاضطراب والرعب، هو القلق الممزوج بالأمراض النفسية، والذى رسمه فى أحد فصول (بوف كور) لبطله: «... على هذا الفراش الرطب الذى تبدو منه رائحة العرق، وحين تثقل الأجفان وأهم بالتسليم للعدم وأعيش الليلة الخالدة تتجدد لدى كل ذكرياتى الضائعة وتخوفاتى المنسية، الخوف من تحول ريش الوسادة إلى أسنة خناجر "!وأزرار السترة كبيرة للغاية فتتحول إلى طاحونة ضخمة! الخشية من قطعة الخبز التى تقع على الأرض أن تتكسر كالزجاجة! القلق من أنى قد أغفو وأنام فيسكب الزيت على الأرض ولعله يحرق المدينة! القلق من وقع أقدام العلب عند دكان القصاب فيكون صوتها كحافر الخيل! ... الخشية أن يتحول فراشى إلى قبر فيضمنى ليدفننى سر الوجود، ص: ۳۶ فيه! ... الخوف والرعب من ذهاب صوتى فلا ينجدنى أحد مهما صرخت وارتفع صوتى» «۱». فالكاتب وإن افترض البطل شخصاً إزدواجياً منفصم الشخصية، إلّا أنّ ما أورده ولا سيّما بالالتفات إلى الترحاب بما كتبه حتى من قبل البلدان الاوربية يمكنه أن يكشف عن القلق الذى يسيطر على أفكار أبناء عصرنا الراهن، فهذه ميزة أخرى لأوضاعهم الفكرية والنفسية. أمّا الرئيس الأمريكى (نيكسون) فقد صرّح فى أول خطاب بعد أن أدّى اليمين الدستورية بصفته الرئيس السابع والثلاثين للولايات المتحدة حيث كان المتوقع أن يتطرق للأمور الحساسة التى تهتم بها الأمّة الصناعية الثرية كأمريكا وهو يعترف بهذه الحقيقة المريرة قائلًا: «إننا نرى من حولنا حياة فارغة ونتمنى إرضاء أنفسنا إلّاأننا لا نرضى»، طبعاً الحياة الفارغة التى أشار إليها نيكسون ليس المراد بها إلّا الحياة التى تفتقر إلى السكينة والطمأنينة، وحيث ليس فيها طمأنينة فهى خالية من كل شىء وجوفاء، وإن كانت تغص ظاهراً بكل وسائل العيش المرفهة، ولعل أفضل صورة تجسد الوضع المأساوى وحالة الاضطراب التى تسود روح البشرية فى عصرنا هى تلك التى رسمها سر الوجود، ص: ۳۷ (بولانسكى) قائلًا: إنّه من مشاهير هوليود (المدينة التى تزعم أنّها تريد إضفاء السرور على الدنيا) حيث قال بعد فراقه المؤقت من حياته السينمائية إثر الصفعة الشديدة التى تلقاها من قتل زوجته (شارون تيت): «أرى الإنسانية تهرول فى زقاق مظلم ليس له من نهاية سوى الاضطراب المطلق». كرروا ثانية هذه العبارة «أرى الإنسانية تهرول فى زقاق مظلم ليس له من نهاية سوى الاضطراب المطلق» .. نعم الاضطراب المطلق! ولكن وعلى الرغم من هذا اليأس والقنوط والاستسلام للاضطراب والقلق وبالتالى الاستسلام للموت، فإنّ الظفر بهذه الضالة الكبرى أى الطمأنينة التامة ليس بالأمر الصعب، أو على الأقل إن كان صعباً فليس بمحال.

الإيمان وإطمئنان الروح

إنّ الالحاد كانعدام الوزن لايجلب سوى القلق والاضطراب سر الوجود، ص: ۴۱ رغم الجهود الذى يبذلها أصحاب النزعة المادية لتصوير بنية الإنسان على أنّها شبيهة بالماكنة، إلّاأنّ التحقيقات والدراسات ولاسيّما على الأصعدة النفسية للإنسان تدل على البون الشاسع بين هاتين البنيتين حتى أن البعض تناسى مثل هذا التشبيه. فإحدى خصائص الإنسان ومميزاته هى تعذر مواصلته لحياته مالم يكن له هدف وعقيدة، أو بعبارة أخرى دون أن يستند إلى آيديولوجية، والحال لاتحتاج الماكنة فى إدامتها لحركتها لفكر أو آيديولوجية. هذه أبرز خاصية من خصائص الإنسان، بحيث لو تخلينا عن التعريف المنطقى المعروف للإنسان بأنّه «حيوان ناطق» وقلنا الإنسان حيوان متفكر وصاحب عقيدة، لكان هذا التعريف أتمّ وأشمل، وإن إستندت تفسيرات الفلاسفة بشأن النطق إلى مسألة الفكر

والإدراك، على كل حال كما يحتاج جسم الإنسان إلى الماء والغـذاء، فإنّ ماء الروح وغـذائها هو الفكر والعقيدة، ومن هنا يشـعر كل إنسان بحاجته الطبيعية إلى امتلاك أسلوب من التفكير واتباع مدرسة فكرية، وإلّا فهو يشعر بداخله بفقر مخيف دون ذلك. وعليه فإن تعذر عليه الظفر بالمدرسة الفكرية الصحيحة، إضطر إلى ملء هذا الفقر بما شاء من الأوهام والخرافات والأساطير، وهذا سر الوجود، ص: ۴۲ هو السر فى تهافت الأقوام المتخلفة على الخرافة والوهم، والخلاصة فهذه الحاجة، هى حاجة طبيعية ومسلمة. ويمكن تشبيه حالة إنعدام العقيدة بالنسبة للإنسان بحالة الخفة وإنعدام الوزن، حيث تفيد الدراسات الفضائية أنّ الإنسان الفضائى لا يستطيع السيطرة على نفسه حين انعدام الوزن، أى أنّ أدنى حركة تقذفه هنا وهناك، بل عليه أن يطبق فمه حين تناول الطعام ومضغه وإلّا أدنى حركة للسانه وأسنانه تقذف بما فى فمه من طعام خارجاً. يقال إنّ الشعور الذى يصيب الإنسان فى حالة انعدام الوزن كسقوطه فى بئر عميق لانهاية له، لأننا لا نتصور فى حياتنا الاعتيادية حالة انعدام الوزن سوى بالسقوط الحر، فالسقوط الحر من مرتفع يفيد حالة من انعدام الوزن حيث ليس للإنسان أى استقرار حين انعدام الوزن، ولعل هذا هو السبب الذى يدفع بعلماء الفضاء لأن يجدّوا فى تزويد رواد الفضاء بنوع من الوزن الاصطناعى من خلال إيجاد الحركة الدورانية والقوة الطاردة المركزية بهدف مضاعفة استقرارهم. و الحق أنّ فقدان العقيدة والإيمان والهدف هو الآخر نوع من حالة انعدام الوزن النفسى، فلا يشعر الإنسان بوجود أى سند يرتكز إليه فى مثل هذه الحالة، وهو بمثابة من يسقط فى بئر عميق لا متناهى، حيث يعيش الألم الخفى ينهشه من الباطن، وتتقاذفه الأوهام والحوادث مهما كانت تافهة!! أضف إلى ذلك فإنّ تأثير العوامل والدوافع المختلفة على أفكاره وهو غير مكترث يجعل منه بمثابة مدينة عزلاء تجاه هجمات سر الوجود، ص: ۴۳ الأعداء، ويضاعف ذلك من عدم استقراره. إنّ الإيمان والهدفية فى الحياة كيفما كان إنّما يختزن الطمأنينة والسكينة ويمنح الإنسان الثقل والوقار ويفسّر له فقدان الثروة وتعرضه للأضرار بما يهدأ روعه ويضىء له آفاق المستقبل ويملأ حياته بالأمل ويسبغ عليه القوّة والقدرة ويدعوه إلى الثبات والصمود. والذى ينبغى الالتفات إليه هنا هو أنّ نقطة ارتكاز روح الإنسان وفكره إنما يستبطن هذا الأثر ويفيضه عليه بأعلى مراتبه حين يعيش الإنسان نفسه على درجة من الثبات وعدم التزلزل، بحيث لا يعتريها حالة من التغير. نعم الأهداف المادية وما يدور حول هذا المحور إنّما تفتقر لهذه الخاصية، فمثل هذه الأمور ذاتها بحاجة إلى سنداً، فأنى لها أن تكون سندا لأرواحنا وأفكارنا؟ ألبرت أنشتاين نابغة عصرنا ورغم انحداره من اصول دينية، إلّاأنّ مذهبه- على حد تعبيره- يختلف عن سائر مذاهب عوام الناس، فهو يعتقد بأنّ ظهور أغلب الأديان معلول لبعض الدوافع الخاصة ومنها حالات الفقر النفسى للإنسان، وقد بحث فى هذا الأمر ليخلص إلى بعض النتائج: فقد قال بشأن كيفية ظهور المذهب الأخلاقى (المذهب الذى انبثق إثر الأزمات الاجتماعية، لا إثر مطالعة أسرار الكائنات والخليقة): «الخاصية الاجتماعية للبشر هى الأخرى إحدى تبلورات المذهب الأخلاقى والدين فالفرد يرى موت والديه وأقربائه والعظماء والزعماء فيتمنى لنفسه الهداية والمحبة والاعتماد على ركن وثيق، سر الوجود، ص: ۴۴ ومن هنا يتمهد السبيل أمامه للإيمان باللّه» «۱». فقد اعترف أنشتاين خلال كلامه دون أن يلتفت إلى ذلك بأنّ الأمور المتغيرة والمتبدلة لا يمكنها أن تكون سنداً لروح الإنسان بحيث يظفر الإنسان بضالته فيها، بل هذا «السند الوثيق للطمأنينة» لابدّ أن يكون مبدأ ثابتاً يأبى الفناء والزوال وما يفوق بالطبع العالم المادى، وهنا يتضح الدور الذى يلعبه الإيمان بالمبدأ الذى يفوق الطبيعة، المبدأ الثابت الأزلى والأبدى فى طمأنة روح الإنسان وإلهامه السكينة والاستقرار. والطريف فى الأمر أنّ أصحاب النزعة المادية أيضا لم يروا بدّا من الاذعان لهذه الحقيقة والاعتراف بصحتها ومدى تأثير الإيمان فى خلق الطمأنينة، لأننا كما نعلم أنّهم غالباً ما يكررون هذا الكلام: إنّ الإيمان باللّه لدى الإنسان وليد الخوف، وهكذا سار «برتراند رسل» على غرار الماديين وقال: «أظن أنّ الخوف أو الرعب هو العنصر المهم قبل غيره فى نشأت الأديان، خوف الإنسان من البلاء الطبيعى، والخوف من الأضرار التى يمكن أن يلحقها به الأخرون، إلى جانب حالة الانزعاج التى يعانى منها عقيب ممارسته للأعمال الطائشة التى يفرزها لديه طغيان الشهوات، ثم يضيف قائلًا: بإمكان الدين أن يحد من شدّة هذا الخوف والانزعاج» «۲». سر الوجود، ص: ۴۵ فهذا الكلام يفتقر لقيمته الفلسفية، لأننا نعلم أنّ الاعتقاد بذلك المبدأ قبل أن يكون معلولًا للخوف من الحوادث الطبيعية، إنّما هو معلول لإدراك الحوادث المنظمة الدائمية

والنظام الكونى البديع الذى يأبى الإنكار، مع ذلك فالكلام المذكور يكشف عن حقيقة وهى أنّ الإيمان بمثل هذا المبدأ من شأنه أن يعين الإنسان على التغلب على الخوف والقلق والاضطراب. النقطة الاخرى الجديرة بالذكر هى أنّ الشيوعيين الذى ينفون بشدّة قضية الإيمان بالدين والإعتقاد بعالم آخر وراء الطبيعة، ولم يعارضوا الدين بصفته آيديولوجية فلسفية فحسب، بل يرونه عقبة كؤوداً تكمن أمام أهدافهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هم أيضا لم يستطيعوا التنكر لدور الإيمان باللّه فى تسكين روح الإنسان ومنحه الطمأنينة، غاية ما فى الأمر أنهم أسبغوا عليه صبغة التخدير لينعتوا الدين بأنّه أفيون الشعوب.

علاقة الطمأنينة بالآفاق الفكرية

اشارة

أى هذين النمطين الفكريين ينتج الاستقرار أكثر؟ سر الوجود، ص: ۴۹ لماذا يشعر البعض ممن يودع السجن حين الموت وحتى أمام المشانق بالسكينة والطمأنينة، بينما يسود القلق والاضطراب البعض الآخر ممن يعيش فى القصور الفارهة ويتمتع بكافة الوسائل والإمكانات؟! لم يلجأ البعض إلى الإنتحار حين مواجهته لأدنى المكاره، بينما يقف البعض الآخر بكل صلابة وشموخ تجاه أصعب حوادث الحياة؟ ولماذا نرى البعض ممن يمارس حياته بنشاط ولذّة رغم معاناته من بعض الحرمان وافتقاره لبعض الأعضاء، بينما هنالك البعض الآخر الذى يعيش التعب والعناء دونما أى مبرر لذلك؟ ليس هنالك أكثر من إجابة واحدة على هذه الأسئلة- كسائر الأسئلة الواردة بهذا الشأن- وهى أنّ اطمئناننا الروحى إنّما يرتبط بنمط تفكيرنا وكيفية نظرتنا واعتقادنا بالنسبة للعالم الذى نعيش فيه، قبل أن يكون مرتبطاً بظواهرنا وأوضاعنا الجسدية. إننا نقرأ فى الفلسفة بأنّ حالاتنا الروحية وأنشطتنا الخارجية إنّما تنشأ على الدوام من صورنا الذهنية، فالحب والعشق والعداوة والقلق والاضطراب والخوف والخشية والسكينة والطمأنينة وكل جهد ونشاط من أنشطتنا البدنية إنّما تتمّ إثر تصورات تتجلّى فى أفكارنا، وأنّها ستؤدّى إلى هذه الآثار حتى فى حالة عدم انسجام تصوراتنا سر الوجود، ص: ۵۰ الذهنية مع الوقائع والحقائق العينية، والحال لا يكون الوجود العينى بمفرده (فى حالة عدم انعكاسه فى ذهننا) مصدراً للآثار البدنية والفعاليات الإرادية قط، ولكى تتضح هذه الحقيقة فى أنّ طمأنينتنا واضطرابنا الروحى يتوقف على نمط تفكيرنا وعقيدتنا، نعقد مقارنة بين أسلوبين من التفكير: النمط الاوّل للتفكير: يرى الفرد المادى النزعة: * إن وجودنا متصل من جانبيه بالعدم والفناء المطلق، فلم يكن أكثر من حفنة من المواد الآلية والمعدنية المتناثرة قبل مجيئنا إلى هذه الحياة الدنيا، كما لن يكون مصيرنا فى المستقبل أحسن من ذلك، حيث سيتحول كل هذا الوجود الرائع وعقولنا المقتدرة وأفكارنا الجبارة وعواطفنا المرهفة ومشاعرنا الحارة، وهكذا كل مفردات حياتنا إلى هباء منثور بعد الموت، فما الذى سيبقى لدينا بعد ذلك؟ لا شىء، نعم لا شىء سوى حفنة من التراب والغازات السابحة فى الفضاء! * إننا على هامش الموت كالتاجر الذى تحرق كافة ثرواته أمام عينيه، ثم يحرق بعدها نفسه فى النيران! فالأمور من قبيل القصر الضخم والسمعة الحسنة وألواح التقدير والبناء التذكارى والشخصية التاريخية- وما إلى ذلك من المسميات الكاذبة والزائفة والشعور الفارغ بنوع من البقاء وديمومة الوجود- من نسج خيالاتنا الفارغة، وإلّا فما أثر هذه الأمور حين نتحول إلى سر الوجود، ص: ۵۱ الزوال والعدم؟! أصلا ماذا سنكون بعد الموت لنستطيع التمتع بهذه التشريفات الخالية من الروح فنشعر بالفخر والإعتزاز؟ لعلنا نتلذذ بمثل هذه العناوين بعد الموت أننا مازلنا على قيد الحياة، وإلّا فمن المسلم به أنّه سوف لن يبقى لنا أى أثر آنذاك. ولعلهم إخترعوا مثل هذه العناوين لاستغفال الأحياء وسوقهم نحو العمل والتضحية والجد والمثابرة، لا على أنّها واقع وجزاء لمن ذهب، أفيستطيع من ذهب أن يدرك شيئاً من هذا الجزاء؟ لايسعنا إلا أن نقول بأنّ هذه الأمور بالضبط أشبه بأن يؤتى بألف نوع ممّا لذّ وطاب من الأطعمة لتوضع أمام جثة هامدة، فما عساها أن تنتفع من ذلك؟ * حقيقة الأمر أن مجيئنا للدنيا لا يعدل زحماتها أبداً، فعدّة سنوات من العجز والجهل ولم يكد يشعر باللذة بشبابه حتى يدب إليه العجز والشيخوخة وأنواع الحرمان والأمراض الفتاكة

التى تحيلنا إلى أعضاء مطرودين من المجتمع، إلى جانب تجاوزنا لكل ما حصلنا عليه من علم وفضل وثروة وأموال لنتجه نحو العدم المطلق، وإن كانت لنا عيون مفتوحة وأدنى شعور خلال هذه الحياة فإننا سنعيش فى عذاب شديد لما نراه من تضييع للعدل واستفحال الظلم والتمييز، فهناك من لا ـ يمتلك الرغيف من الخبز، بينما هنالك من تهب الآلاف لمراقبته والسهر على حفظه ورعايته قبل أن يخرج من بطن أمّه، فلو كان هناك حساب لما مات البعض جوعاً، بينما لا يعرف البعض الآخر كيف يقضى على ثروته الطائلة، فهو يمارس الأعمال الطائشة والأفعال التافهة بهدف التقليل من ثروته، كأن يشترى طابعاً بريدياً سر الوجود، ص: ۵۲ بقيمة مئة ألف دولار، أو يصرف مبلغاً ضخما على قطته وكلبه! لم هذا البؤس والشقاء الذى يعيشه الأطفال فى المستشفيات، بينما تشهد دور البغاء والحانات سرور اللصوص ودبكهم ورقصهم؟ * قانون الجبر أو قانون العلية إنّما يحكم جميع وجودنا، بل جميع عالم الوجود بكل صلابة وشدة دون أية مرونة، فهو قانون أعمى لا يعرف معنى للرأفة والعدالة، وكأنّ تاريخ البشرية فضلًا عن تواريخ حياتنا قد دونت منذ الأزل ولابدّ أن تنفذ بحذافيرها، والحال ليس لدينا أى اختيار للهرب من مخالب ما ينتظرنا من مصير. * أفليس هناك من يسأل (و إن سأل فليس هناك من يجيب) ما سبب مجيئنا هنا، ولم لابدّ لنا من مفارقة هذا المكان؟ فلم نُستشَر فى مجيئنا ولا فى ذهابنا، نعم معلوم أنّ الطبيعة لا تنطوى على أى هدف، فهى ليست أكثر من لعبة فارغة بدأت وانتهت ثم ... ليس هنالك فرد مادى يتخلف فى تفكيره الفلسفى عمّا مرّ معنا سابقاً، ولا يخفى مدى القلق والاضطراب الذى يسيطر على الإنسان إذا تحلى بهذا النمط من التفكير، طبعاً ممكن أن يسعى أتباع هذه المدرسة إلى عدم الاستغراق فى التفكير بشأن هذه الأمور، فيزجون أنفسهم فى اتون الحياة والانهماك فى تفاصيلها ومفرداتها بحيث لا يبقى لديهم من مجال لظهور مثل هذه الأفكار، لكن بمجرّد أن تساورهم فرصة التفكير تهجم عليهم سيول هذه الأفكار الجارفة.

النمط الثانى للتفكير:

* إنّ هذا البناء الرائع الذى يصطلح عليه بالعالم هو من صنع العقل الكلى الذى خلقه لهدف وغاية، فهو يسير به لتحقيق ذلك الهدف، ولما كان ذلك المُبدىء العظيم هو مصدر إفاضة جميع الوجودات والقدرات فهو غنى وليس له من حاجة إلينا البتة، وهو الذى خلقنا من أجل الهدف السامى المتمثل بالسمو والتكامل، ومن المفروغ منه أنّ مُبدىء بهذه الصفات سيعاملنا بمنتهى الرأفة والرحمة. أفلم يزودنا بمختلف الإمكانات من أجل العيش برفاه وقد حبانا بأنواع النعم والبركات؟ بلى هو الذى خلقنا من أجل السمو والتكامل وقد منحنا كل الوسائل والإمكانات اللازمة لتحقيق ذلك، فإن واجهتنا بعض الكدورات والمعضلات علينا أن نعزى ذلك إلى عدم معرفتنا بقوانين الخلقة والإمكانات الواسعة المتاحة، أو عدم استخدامها بالشكل الصحيح على سبيل المثال نستطيع ومن خلال التعرف على قوانين الطبيعة والاستفاده من الإمكانات المتيسرة أن نبنى دوراً لا تتأثر من قريب أو بعيد بالزلازل، كما يمكننا الالتزام بالتعليمات الطبيّة والوصايا الصحية والاستفادة من الطرق العلاجية للأدوية لنشهد حياة لا يعانى فيها الأفراد من أى نقص وعيب يصيب الأعضاء والبنية البدنية، وعليه فنحن المسؤولون عن العيب والنقص الذى يصيب أعضاءنا وما نعانيه من بعض الكوارث والشدائد. الاجحاف وتغييب العدل هو الآخر معلول لقوانيننا الاجتماعية الخاطئة فى التوزيع، فإذا صححت هذه الأنظمة والقوانين الخاطئة سر الوجود، ص: ۵۴ زالت كافة أشكال الظلم والاجحاف، آنذاك يتمكن الجميع من العيش برفاه ورغد من العيش بالتالى لسنا آلات ماكنة لنؤدى حركاتنا وأعمالنا على سبيل الاضطرار، فقد زودنا بالإرادة والاختيار لنمارس حياتنا على ضوء تخطيطنا الصحيح أو الخاطىء، فلنا أن نحسن استغلال نعم الدنيا وفرصها أو نسيىء استخدامها، المصير هو الآخر يأبى التفسير على أساس الجبر والاكراه دون أن يكون للإنسان أى دور فى تعيينه. أمّا وجودنا فهو متصل من جانبيه بالأبدية وليس من شأن الموت قطع سلسلة تكاملنا الوجودى أبداً، وعلينا أن نستعمل العبارة «الانتقال إلى عالم أوسع» بدلًا من التعبير بالموت، العالم الذى نسبته إلى عالمنا كنسبة عالمنا لعالم رحم الأم، وبناءً على ذلك فإننا لا نفقد شيئاً حين الموت. قطعاً لسنا عارفين بكافة أسرار الوجود، إلّاإننا نعلم كلما تكاملنا على صعيد العلم والمعرفة تكشفت

لأعيننا حقائق أنصع عن نظام الوجود وما ينطوى عليه من جمال وروعة، وعليه فلا- مبرر لأن يمارس ذلك المهندس الماهر أدنى عشوائية وظلم بحقنا. إنّ وجودنا بأسره نحن البشر الذين نعيش على سطح الكرة الأرضية ليس إلّاكقطرة ماء فى فم طائر، فما عسى تأثير هذه القطرة على محيط لو حلق هذا الطائر وقذف بتلك القطرة؟ وعليه فإننا لم نخلق لنؤدّى خدمة لذلك الخالق العظيم، بل هو الذى خلقنا لإسعادنا طبعاً لسنا بصدد الحكم بأنّ أيّاً من هذين النمطين من التفكير هو سر الوجود، ص: ۵۵ الصائب والصحيح من وجهة نظر الاستدلال الفلسفى، ونوكل هذا إلى الأبحاث القادمة. والمراد فعلًا هو أى من هذين النمطين من التفكير (بغض النظر عن الاستدلالات الفلسفية) يمكنه أن يلبى حاجاتنا فى تحقيق الطمأنينة الواقعية، وأى منهما يقذف بنا فى عالم من التشاؤم وسوء الظن واليأس والملل والضجر والاحساس بالوحدة والغربة؟ الجواب واضح على هذا السؤال. فهل نستطيع والحال هذه أن نكون غير مكترثين فى اختيار واحد من هذين النمطين الفكريين رغم خطورة دورهما فى صنع مصيرنا وتعيين عاقبتنا، أم هل يسعنا التغاضى عن أدلة أنصار كل نمط فكرى بشأن عالم الوجود؟ ونختتم هذا البحث بالعبارات الرائعة التى أوردها الطبيب والجراح المعروف آرنست آدولف: «لقد أدركت بعد هذا الخزين من التجارب أنّ علىَّ منذ الآن فصاعداً أن اعالج جسم المريض باستعمال الوسائل الطبية والجراحية كما علىَّ أن أداوى روحه من خلال تقوية إيمانه باللَّه، فاعتمادى على الأدوية والعلاج والإيمان باللَّه إنّما يستند إلى المبانى العلمية ... وقد تزامنت تجاربى واستنتاجاتى هذه مع ظهور نوع من الصحوة فى عالم الطب، والتى تتمثل بالتفات الأطباء للعامل النفسى للمرضى. سر الوجود، ص: ۵۶ مثلا- ثبت اليوم لدى ۸۰٪ من المرضى الذين يقيمون فى المدن الأمريكية المهمّة والذين يراجعون الأطباء بعض العوامل النفسية المهمّة، و ليس لنصف هؤلاء أى عارض بدنى يدل على مرضهم، لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الأطباء يرون هؤلاء الأفراد الذين لا- يعانون أى مرض عضوى هم مرضى حقّاً، لا أنّهم متمارضون ... ويرى علماء النفس والأطباء أنّ أهم أمراضهم تكمن فى الذنب والضغينة وعدم التحلى بالعفو والصفح والخوف والاضطراب والفشل والحرمان وعدم العزم والإرادة والشك والترديد والكآبة، لكن لسوء الحظ فإنّ بعض أطباء النفس حين يتحرون أسباب هذه الأمراض فإنّهم وبسبب عدم إيمانهم باللَّه لا يتطرقون إلى هذه القضية أبداً» «۱».

حياة جوفاء وأليمة

هل سمعتم لحد الآن بمثل هذه القصة سر الوجود، ص: ۵۹ كل شىء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شىء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه أمير المؤمنين على عليه السلام «۱» يقال أنّ هناك فراغاً رهيباً فى مركز كل ذرة، أى تعوم أجزائها وقطعاتها، ويؤكّد عالم الذرة المعروف «البروفسور جوليو» لو استطعنا تسليط ضغط معين على بدننا بحيث تزول كل تلك الفراغات من الذرات لأصبحت هياكلنا على هيئة ذرة غبار لا يمكن رؤيتها إلّا بالمجهر! وبالطبع فإنّ وزن هذه الذرة من الغبار ۷۲ كيلو غرام! وعلى هذا فلو كان هناك جهاز للكبس بحجم الكرة الأرضية وحاولنا مثلًا كبس هذه الكرة لأصبحت جميع هذه الأراضى الشاسعة والقصور والكنوز والمزارع العامرة والبساتين المخضرة والمعادن والمصادر الجوفية وبالتالى جميع الكرة الأرضية بمثابة كرة صغيرة يصعب تصورها والتصديق بها. كأنّ كل شىء متعلق بعالم المادة له نفس وضع الذرة، فهو ضخم رائع من بعيد وإذا اقتربت منه بدا لك أجوفاً إلى الحد الذى لا- يسمع فى جوفه اللامتناهى سوى انعكاس وقع أقدامنا تتّجه نحو هدف عبثى ومجهول ومهما نكن متشائمين فإنّنا لا نستطيع حمل أقوال عظماء الدنيا، الذين شكوا عدم شعورهم بالسعادة والموفقية حين نالوا أهدافهم وظفروا بضالتهم، على الرياء والنفاق، فمن يضمن أننا سر الوجود، ص: ۶۰ سوف لن نكون مثلهم لو سرنا على ذات الخطوات؟ ولاسيّما إنّنا جرّبنا ذلك فى بعض الأمور، هلم بنا الآن لنسمع من «وَزير» نماذج لهذين الأفقين الجميلين وفى ذات الوقت الأجوفين «... أتصدقون أنّه فى الوسط الذى يضطرب فيه قانون العرض والطلب فإنّ القبول فى الجامعات يبدو شبيها بالفوز بجائزة نوبل، أو على الأقل الجوائز النفيسة المتعلقة باختبارات الحظ والوزن والثراء، ففى مثل هذه ليس هناك شىء أعظم متعة لذلك الفتى الذى اجتاز الإمتحان أن يرى اسمه فى

الصحيفة ضمن أسماء أولئك الأفراد المقبولين وأنّه سيرد الجامعة! كنت أعتقد لو حدث مثل هذا الأمر فسوف لن يكون هناك ما يعكر صفو حياتي، آنذاك سيتألق كوكب سعادتي في سماء الحياة وستبتسم لي جميع الأشياء فلن أعاني حينها من حاجة أو نقص، كنت أعتقد أنّ للجامعة لذّة ونكهة خاصة لا يمكن الاصطلاح عليها سوى بالسعادة والموفقية، ولم أكد أدخل الجامعة حتى شعرت بأنّها هي الاخرى من المفردات الطبيعية للحياة ولا تنطوي على أيّة لذّة خاصة، بل هي مرحلة جديدة من المشاكل والصعاب التي نعاني منها في سائر مجالات الحياة وضغوط الاستاذ ليست بأقل وطأة من ضغوط الأب! فقلة الكادر التدريسي وأزمة وسائل التعليم والمعضلات المالية التي تقصم الظهر وطغيان الغريزة الجنسية وسائر أنواع الحرمان كانت تمثل أمام ناظري كجبل أشم يصعب تسلقه، كنت أظن أنّ نجاحي الباهر وسعادتي الحقيقية إنّما تكمن في الحصول على الشهادة بعد أن بذلت هذه الجهود المضنية من أجلها، على غرار ذلك البطل الذي سر الوجود، ص: ۶۱ يشعر بالنجاح حين يتسلق قمة أفرست. نعم، كان ينبغي لي أن أتجاوز كل تلك المشاكل التي تحيط بي وهي بمثابة جدران القبر في الليلة الأولى وهي تمارس ضغوطها على روحي وجسمي فلا أفكر إلّافي الخلاص منها، ويبدو أنّ هذه الخيالات لم تكن أحسن من سابقتها قبل الجامعة، رغم أنّي كنت أشعر هذه المرة بأنّ كل شيء سيختلف، لأنّني كنت لحدّ تلك اللحظة أعيش على هامش الحياة، حيث كان الجميع ينظر إليَّ باجلال وإكبار، حيث كنت أواجه بالترحاب في أي مجلس حللت، كانت تتعالى الأصوات سيادة الدكتور، سيادة المهندس! ... ومن هنا نسيت كل جهودي وأتعابي في الماضي بعد أن نلت هذه المكانة. كانت الخطوة التالية بعد تخرجي من الجامعة هي البحث عن العمل، غير أن جميع الأبواب كانت موصدة بوجهي، كنت أستدين بعض الأموال لأشتري الصحيفة فاسارع قبل كل شيء لمطالعة إعلانات الاستخدام، مع ذلك لم أعثر على عمل مناسب. كنت أشعر كأنّي تاجر كبير قد أعد مختلف السلع والبضائع الثمينة، إلّا أنّها تكدست في المخازن فليس هناك من يشتريها، فكنت أحدث نفسي: هل عميت عيون الناس بحيث لا يرون كل هذه البضاعة الفاخرة؟ هنا ترحمت على أيّام الجامعة حيث المرح واللعب وعدم سر الوجود، ص: ۶۲ المسؤولية، أمّا الآن فالجميع من قبيل الأب والأم والأخ والكاسب والبقال وصاحب الحمام كان يتوقع من «الدكتور» والحال لم أكن أملك رغيف الخبز! كانت البطالة بمثابة الإرضة التي تنهش بدني وتنخر عظامي، فقد كنت مضطراً للاستقراض الآخرين حتى من أجل كي ملابسي وصبغ حذائي ليبدو لامعاً كوجهي الذي كنت أحرص على حفظه، كنت لا أنفك عن مراجعة الدوائر والمؤسسات، فكان هذا يجيبني لقد اكتمل الكادر ولا نحتاج إلى أحد، وذلك يقول ليتك أتيت قبل يومين فقد كنّا بحاجة ماسة إليك، وثالث يقول اشيع أنّ الوزارة الفلانية تروم استحداث دائرة فاذهب وسجل إسمك لعل القرعة تقع عليك فتكون من ضمن العاملين فيها. و هكذا كنت أقضي أصعب الأيّام، لم أذكر فترة عانيت فيها كتلك الفترة العصيبة، فكنت أهمس لنفسي: هل يوجد من هو أشقى منّي في المجتمع؟ أين ينبغي لشخص مرموق مثلي أن يلوذ؟ كأن بيوت المدينة أقبية للقبور، وهذه السيارات الصاخبة توابيت وهؤلاء الأفراد الذين يتسكعون في الطرقات والشوارع أجهزة آلية منحت أرواح الشياطين وقد سئمت هذه القبور، فهي تفتقر لأدنى رحمة وعاطفة كأنّ غباراً غليظاً ملبداً بالحزن والاسى وقد نزل من السماء وغطى كل شيء، لقد أصبح عمري ثلاثين سنة ولامن عمل ولا بيت ولازوجة ولا طفل ولاحياة طبيعية، لقد ذهبت تلك الجهود دون النتيجة ومازال المستقبل مرعباً غامضا! بل إنّ الخوف والهلع الذي يسيطر على من جراء المستقبل ليفوق أضعاف ماكنت أعانيه بالماضي. سر الوجود، ص: ۶۳ وأخيراً أسعدني الحظ بالعثور على العمل وقد شغلت عدّة مناصب حساسة بسبب استعدادي الذاتي وإمكاناتي الجبارة، حتى أصبحت وزيراً لإحدى الوزارات المهمّة وقد زودت بكافة الإمكانات ومنحت كافة الصلاحيات فكدت أطير فرحاً، وهنا إعتقدت أنّ السماء قد لبست حلة جديدة، ولا مجال للحديث بين فرق هذه المرحلة عن سابقاتها، فقد كان الماضي ضرباً من الخيال والوهم، أمّا الآن فأنا أعيش الحقيقة العينية. مضت مدّة حصلت على دار فخمة جميلة، كما اقتنيت سيارة رائعة، تزوجت ورزقت بولدين لطيفين، كما جنيت أموالًا طائلة، بالتالي تمكنت من الظفر بكافة الوسائل والإمكانات، ولكن ما الفائدة؟ لقد وقفت اليوم أمام المرآة لأرى الشيب قد دبّ في نصف شعري، لم أكن أشعر آنذاك بالراحة، لم ينقطع هاتف الوزارة ولو لحظة واحدة؛ الأمر الذي كان يزعجني ويسلب راحتي.

کـانوا یوقظوننی أحیانـاً منتصف اللیـل للقیام ببعض الأعمال المهمّـة، فکنت أنهض متثاقلًا وأنا أشـعر بالغثیان، کان علیَّ أن أسارع إلی الوزارة لأحل أیة مشکلة ذات صلة بالحوادث التی تقع فی البلاد، والأسوأ کنت أشعر بالتعب والإرهاق أحیانا فآمر البواب بأن یزیح سر الوجود، ص: ۶۴ من أمامی الملفات المتراکمة والمتداخلة التی کانت تشـبه عظام الأجساد المشرحة لمختلف الأفراد وهی تکیل السب والشـتم بلسان حالها، کما آمره بغلق باب غرفتی بوجه الأفراد الحیاری الـذین تجشـموا العناء منذ أسابیع لیحصلوا علی وقت لمقابلتی، وقـد ملوا الجلوس علی بـابی. مـاذا أفعـل؟ تعبت، دع الآـخرین ینظرون إلی باب مکتبی ویلعنون هـذا الجالس فیه، الـذی خرج تواً من بؤسه وتعاسـته وقد نسـی کل شـیء. لیقولوا ماشاءوا فأنا تعب مرهق، وهل الإنسان إلّاعظم ولحم ودم. کانت لحظات سـکوت وصـمت عابرة، کنت أتطلع إلی المنفضـة وأنا أتابع التـدخین علّه یخفف من تعبی، وأتأمل کل ذکریات الماضـی ... آه، کم کانت أیّاماً جمیلة ولم أکن أقدّرها، فترة الجامعة الرائعة، بل الفترة الأروع التی سـبقتها، لو لم أکن أملک أی شـیء سوی الطمأنینة، الطمأنینة والاسـتقرار ... لست بحاجـة إلی کل هؤلاء الأفراد من حولی، ولا إلی هـذا العدد من المراجعین الذین لا یعرف صادقهم من کاذبهم، کأنّهم یرون أنّهم اشترونی، وکأنّی کنت یوماً زمیلًا لهم فی الـدرس أو هناک علاقـة معرفـة یتوقعون عدم ردی لأیمن طلباتهم، وعلیّ أن البی کل حاجاتهم! سر الوجود، ص: ۶۵ إنّهم لا یعلمون أن کل توقیع لأیمن هـذه الملفات التی لا أطیق مطالعتها بمثابة خنجر یغرس فی قلبی، حقّاً أنّ مصـیری ومصـیر هؤلاء الأفراد ربّما یتوقف علی حرکـة القلم التی یصـطلح علیها بالتوقیع. یزعم کل من یراجعنی أنّ لدیه عملًا ضروریاً ولابدّ أن یرانی ومن هنا لا یتوقف الهاتف عن الرن لاسـتلام الأعمال الضـروریة کانوا یوقظننونی من النوم منتصف اللیل، علی أنّ حوادث ضـروریة جدّاً قد وقعت، وکأنّی الشـخص الوحید الذی تخلو حیاتی من الأعمال غیر الضروریة، لم أکن آمل بالرجوع إلی البیت فی کل لیلة کنت أغادره فیها، لم یکن لدی برنامج للاستراحة ولا للاستجمام، ولا للتحدث مع الزوجة والأطفال والأصدقاء، کل یوم جلسة وندوة واجتماع و .... سـیقدم الیوم الوفد العسـکری الرفیع المسـتوی الفلانی، وغداً الوفد السیاسی الکذائی، وبعد غد الفریق الاقتصادی و ... وعلیّ أن أرتدی الزی الرسـمی لاستقبال هذه الوفود، أکاد أتقیء من هذه الرتابة والتکرار. لقد تعبت حقّاً وأرهقت و ... قلبی یؤلمنی وقرحة المعدة والاثنا عشری تقض مضجعی. لقد قال الطبیب الیوم من المحتمل أن أکون مصاباً بسکر الدم، لقد تلفت أعصـابی من کـثرة تنـاول الأـقراص والحبوب! إنّ غرفتی ملیئـة بالأدویـة وکأنّهـا صـیدلیة، یقـال أننی أعـانی من کثرة العمـل المتعب، بالمناسـبة کم هی تافهـة مثل هـذه الحیاة، وکلما تقدمت أکثر بدت لی أکثر تفاهة وعبثیة. سـر الوجود، ص: ۶۶ کأنّی أتجه فی دهلیز مظلم ومرعب نحو ضالـة مجهولـة فلا أسـمع سوی وقع أقـدامی فی هـذا الوسط الخالی! لیتنی أعود إلی الماضـی قلیلًا، لا، بل لیتنی لم أولد ... یالها من حیاة حمقی ... ما الذی أتی بی إلی الدنیا؟ هذا أیضاً سر ... کانت هذه صورة من الحیاة المادیة التی تنطوی من بعید علی صورة جذابة، کانت تشـتمل علی کل شـیء ولا تفتقر إلی شـیء. و علیه یتضح أنّ البحث عن الحیاة الواقعیة لابدّ أن یتمّ فی عالم یفوق عالم المادة والخبز والماء والمقام ولا ینبغی أن تکون النعم واللذائـذ المادیة هی الهدف فیها، بل ننشدها لتکون وسـیلة من أجل حیاة أرفع وأنبل.

موقعنا فی عالم الوجود

إنّ غرقنا فی الحیاة الیومیة لایسـمح لنا عادة بالتفکیر فی وجودنا من حیث الکم والکیف والموضع الذی نشـغله فی هذا الفضاء الواسع سر الوجود، ص: ۶۹ یسیر وجودنا من جانبیه نحو «العدم». لو تصفحنا نبذة من سیرة حیاتنا السابقة لانتهینا سریعاً إلی العدم، ۲۰ سنة، ۳۰ سنة، ۵۰ سنة أو علی الأکثر ۷۰ سنة یبدو أننا لم نکن شیئاً مع الفارق الذی لدینا الآن وما سبقه، مستقبلنا هو الآخر لا یتجاوز هذه المدة ولا یبدو بعده (ظاهراً) سوی ظلام العدم، هذا من جانب. ومن جانب آخر لو تسـلقنا مرکب الفکر السـریع والمجانی وعدنا قلیلًا بمسیرة قافلة البشـریة إلی الوراء فلا یمر أکثر من بضـعة آلاف سـنة لیغطی فضاء هذه المسیرة بالغبار المبهم، فلا نری سوی أشباح تأتی بسرعة إلی هذا الوادی فتمضـی لتترک بعض الآثار المتواضـعة، کأنّهم یرون أنفسـهم رکّاب مهربین یسـعون لاخفاء أنفسهم من نقاط تفتیش

التاريخ! ثم نعود بسرعة ملايين السنين- وهى المدّة التى قد لا تكون أكثر من لحظة بالنسبة لعمر عالم الوجود- فكأنّنا آنذاك قد وطأنا الدهليز الرهيب للعدم (عدم الإنسانية) وهناك تبدو بوضوح بحار ظلمات العدم، فلا نجرأ على المضى قدماً، وإذا مضينا فلا جدوى لأنّ السفر فى اللاشىء ليس له من نتيجة طبيعية سوى اللاشىء، وإن كنّا سابقاً سر الوجود، ص: ۷۰ شيئاً فلابدّ أننا كنّا تراباً وحجراً «۱». السفر إلى المستقبل أصعب وأعقد من ذلك، حيث يتعذر التكهن بالأوضاع لما بعد مائة سنة ولو استعنا بأعظم الحاسبات الالكترونية وطاقات وخبرات المتخصصين من العلماء ذوى التجربة، فالمركب السريع لا يستطيع سوى السير ببطء فى هذا الاتجاه وسرعان ما يتوقف عن العمل وكأننا والجماعة البشرية قد وقفنا على سفح جبل ارتفعت قمته من جانب إلى عنان السماء لتغوص وسط هالة من السحب السوداء، ومن جانب آخر قد انتهى إلى وادى عميق مظلم ليس للعين من سبيل إليه. فليس لدينا وضوح عن بداية مسيرتنا ولاعن مستقبلها البعيدالطويل، ثم هل نحن وسائر أبناء البشر أول من دخل وادى الحياة؟ لا نرى الاجابة بالإيجاب إلّاقمة الأنانية والتسرع وعدم الاحتياط و ... وهل سنكون آخر من جاء إلى هذا العالم وبنا ستختتم هذه السلسلة الطويلة اللامتناهية؟ الجواب بالإيجاب هنا هو الآخر قد لا يكون أفضل من سابقه. من يدرى لعل هناك الآلاف أو الملايين بل المليارات من أنواع الأفراد- كالبشر أو أفضل منه- قد وردت هذا العالم وفارقته. سر الوجود، ص: ۷۱ و من يدرى أنّ المستقبل سيكون كذلك حيث سيأتى الملايين من البشر فيعيشون ويرحلون ولا نكون سوى حلقة من حلقات هذه السلسلة الطويلة. من جهة أخرى هنالك مليارات الكواكب التى يشاهدها الإنسان بالعين المجرّدة، ولعل ما لا يراه أكثر وأعظم، فهل تقتصر الحياة التى تتصف بها الكائنات على كرتنا الأرضية؟ ليس هنالك من عقل يمكنه قبول هذا الاحتمال، وعلى ضوء حساب الاحتمالات الرياضية فإنّ ملايين الكواكب المشاهدة بالعين لابد أن تفيض بالحياة والحركة «۱». بالمناسبة، كيف يعيش سكنة سائر الكرات؟ هل لهم معارك وحروب وسفك دماء كحياتنا، هل لهم على سبيل المثال فيتنام قاتلوا عشرات السنوات عبثاً، أم لا تجد مفردة باسم الحرب فى قاموسهم أبداً، فهم يعيشون كملايين خلايا البدن بسلام وصلح مع بعضهم البعض الآخر؟ لا أحد يعلم إذن، فلو فكرنا قليلا وعدنا إلى أنفسنا لرأينا أنّ ما تصطلح عليه بالعلم البشرى وقد أعددنا مكتباتنا التى تضم ملايين الكتب، هو ليس أكثر من شرح لجهلنا، أو لعلمنا بالأمور الجزئية الواضحة التى تشبه إلى حد بعيد شعاع ضئيلًا وسط صحراء دامسة. ولعل حوض صغير من الحبر يكفى لإعادة كتابة وتدوين كافة العلوم والمعارف البشرية والتى سطرت من قبل ملايين العلماء فى ملايين من الكتب، بينما قد لا تكفى كل محيطات الدنيا لو كانت حبراً لكتابة أسرار الوجود وما ضمه من كائنات وما بعد فى أعماق سر الوجود، ص: ۷۲ السموات وما خفى فى الماضى والمستقبل «۱». وعلى هذا الأساس ستصدق أنّ «النفى» فى مثل هذا العالم وفى ظل هذه الأوضاع والشرائط أمر صعب إن لم نقل أحمق. لابدّ من التأنى فى الحركة والخضوع والتواضع، بعبارة أدق لابدّ أن نلتفت إلى صغر حجمنا، كما لابدّ أن لا نتقوقع فى الدائرة الضيقة لحياتنا، وعلينا أن نجهد أنفسنا من أجل الخروج من هذه الدائرة الضيقة، فنفكر أكثر ونطالع أكثر. فلا نقنع ونفتخر بالمراوحة فى مواصلة هذه الحياة العارية واليومية التى تحمل حالة التكرار والرتابة، ولابدّ أن ينصب جهدنا على كيفية تجاوز هذه الحالة فنعتز بما نتقدمه من خطوات خارج إطار هذه الحياة، فنفكر فى حل تلك الأسرار المعقدة (على أساس قدراتنا ومهاراتنا) مهما كانت بسيطة ومتواضعة. وبالطبع فإنّ هذا اللون من التفكير بشأن مالا نعلم، يمنحنا القدرة على بحث وتحليل سلسلة من الحقائق خارج الدائرة المذكورة، فالواقع هو أنّ هذه المرحلة هى بداية الطريق نحو المصير وحل الاسرار التى تنطوى عليها حياة الإنسان فى حركة الواقع. سر الوجود، ص: ۷۳

كيف نفكر وبم نفكر

اشارة

إنّ البؤس والشقاء ليس معلولا للحظ والطالع، بل وليد سوء التفكير سر الوجود، ص: ۷۵ «أفضل العبادة الفكر». «۱» أمير المؤمنين على عليه السلام أحياناً نتساءل: لِمَ نفكر؟ ما هو الخير الذى جنيناه من هذا التفكير؟ بل كل بلاء وعناء إنّما يصيبنا من جراء هذا التفكير فى شؤون الحياة والوجود والمصير والعاقبة وما إلى ذلك. فهل للمجانين من تفكير وهم على هذه الدرجة من السرور والراحة؟ بل هم على هذه الدرجة من النشاط والحيوية بسبب عدم التفكير، إنّهم يرون العقلاء يشكلون عبئاً ثقيلًا عليهم ولسان حالهم يقول: ياله من عالم رائع عالم الجنون لو نأمن من عدم تسلل العقل إلينا، فما أحرى العقّال أن يلصقوا أنفسهم بذلك العالم فيمارسون حياتهم بعيداً عن التفكير والحساب. لكن وعلى هذا الأساس فإنّ العالم الأروع والأبعد قلقاً واضطراباً من عالم المجانين هو عالم الشاة، ومن هنا ترى عليها علامات السمنة والترهل، الأجهل من ذلك الخشب والحجر وهذه الجدران المحيطة بنا فهى تفتقر حتى إلى دماغ الشاة الضئيل، كما تفتقر إلى نظرها العبثى والذى لا طائل من ورائه، وعليه لابدّ لنا أن نتمنى هذه الحياة ونحسدها عليها. سر الوجود، ص: ۷۶ كلا! ليس الأمر كذلك، فلسنا نفخر بأن تكون حياتنا على غرار ما عليه المجانين أو الحيوانات أو قطع الحجر الخالية من الروح، وليس سعادتنا بعدم الشعور بالمعاناة والأذى بل بالعكس لابدّ أن نتحلى بالشعور والإدراك وإن كبدنا هذا الشعور بعض الشدائد والصعاب، فلولا الشعور والفكر والإدراك لتحجر الإنسان وأخذ يراوح فى مكانه ولعاش حالة الذل والهوان على الدوام. الواقع أنّ جميع الشدائد التى تصيب الإنسان هى وليدة الهروب العابث من التفكير فى الواقعيات وإدراكها، فعملية خاطئة واحدة لا تستند إلى التفكير قد تؤدّى إلى تحطيم الدنيا برمتها، فاليوم تصرف تقريباً نصف ثروة العالم ويهدر ما يعادلها من الطاقات الإنسانية للبشرية التى تعيش على الأرض فى هذا المجال أى فى كيفية القضاء بصورة أسرع على نسل البشرية! ففى عالمنا المعاصر ليس فقط نصف هذه الطاقات الإنسانية بصورة جنود وصنّاع سلاح وخبراء حروب ومشرفين لوجستيين ومخترعين ومنتجين للصناعات الجبارة المدمرة فحسب، بل النصف الآخر بدوره قد سخره ليدفع به نحو الموت والعدم، والأمر أشبه بمن يشترى بنصف مرتبه مواد سامة يدخرها للقضاء عليه، أو يهبها لمن فوقه ليقتله. والحق لو عاشت الإنسانية التفكير لما أصبحت الدنيا بهذا الشكل، من المسلم به أنّ التفكير لا يقود إلى الجريمة والقتل أبداً، بل مجانبة سر الوجود، ص: ۷۷ التفكير وتحكيم العواطف الطائشة هى التى تخلق مثل هذه الحوادث، ومن هنا يندم الإنسان على ما يبدر منه من أعمال طائشة حين يهدأ ويفكر. وعليه فلابدّ أن نقرّ بأنّ أهم وظيفة لكل إنسان فى الحياة هى التفكير، فالتفكير هو السبيل الوحيد لحل جميع المشاكل وتحرير الإنسان من العبودية والقيود والأغلال وعلاج كافة أمراضه الاجتماعية، ومن هنا صرحت بعض الروايات الاسلامية بأنّ التفكير أفضل العبادة، وتفكر ساعة خير من عبادة ألف سنة.

الصدارة فى التفكير:

قطعاً الشيء الأول الذى يجب علينا التفكير بشأنه هو: من أين ابتدأ وجودنا؟ من هو مُبدىء هذا العالم؟ وكيف طوينا هذه المسيرة الطويلة؟ ليس هناك موضوع قبل ذلك ينبغى لنا التفكير فيه، فالتعرف على مُبدىء الوجود وحل هذا اللغز من شأنه أن يساعدنا على التعرف على سائر الأسرار. قد يقال حسناً لابدّ من استعمال قوّة الفكر، لكن ألا تنصحنا بعض المدارس الفلسفية الحديثة (كالبراغماتية) بأنّ الاصالة بل الوجود بالنسبة لكل ظاهرة إنّما يتوقف على نتائجها؛ أى أنّ ما لا نتيجة له فى حياتنا فلابدّ من القول بأنّه أصلًا ليس بموجود، أو لا فرق بين وجوده وعدمه فى ميزان فكرنا، وما الضرورة فى التعرف على مُبدىء الوجود سر الوجود، ص: ۷۸ من حيث استمرار حياتنا الفردية والاجتماعية، أو ليست بعض الشعوب كالشعب الصينى يعيش الحياة دون حل هذه المسألة، ولعلهم يعيشون بصورة أفضل من حياتنا، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء المطالعة والاستغراق فى هذه القضية المعقدة. وهنا نقول إنّ من يحاول بهذا المنطق التنصل عن التفكير بشأن هذه الحقيقة فهو ينسى موضوعين: الأول: إنّه ليس هنالك نتيجة أسمى من إدراك الواقع فى أى بحث ودراسة بشأن مختلف القضايا، وبعبارة أخرى فإننا نريد العلم من أجل العلم، ونبحث الحقائق بهدف فهم واقعيتها، لا فقط لما لها من أثر فى حياتنا (عليك بالانتباه والدقّة)، فالعلم هو الضالّة العظمى للبشر وإدراك واقعيات عالم الوجود هو آخر أهداف البشرية

وتطلعاتها، ومن هنا نشاهد على مدى التاریخ البشرى سعة الجهود والمساعى الجبارة التى بذلها الإنسان من أجل إدراک الحقائق، کما نشعر بدورنا بالدافع الباطنى القوى الذى یسوقنا نحو تحقیق هذا الهدف دون أن نرى أنفسنا مسؤولین عن ارتباط العلوم بحیاتنا الیومیة، فهل کل هـذه الجهود والمساعى التى تبـذل من أجل الوقوف على أسـرار المجرات والمنظومات وکیفیـة ظهور العوالم البعیـدة بسـبب الأثر الذى تلعبه فى حیاتنا الیومیة؟ رغم إننا وفى ظل الظروف الراهنة لا نرى أى تأثیر محسوس لها فى حیاتنا، وهکذا الجهود المضـنیة التى بذلها العلماء لسـنوات مدیدة من أجل التعرف، على أسرار الحیوانات والحشرات والمدنیة العجیبة التى تحکمها، فهل لهذه الأمور من تأثیرات على سـر الوجود، ص: ۷۹ حیاتنا المادیة الیومیة؟! لماذا لا یشـعر علماء الفلک والحشـرات رغم هذه الجهود بالتعب؟ قطعاً لأنّهم یرون أنّ إدراک أسـرار الخلیقـة (مهما کانت) تعـد أعظم جزاء یتلقونه تجاه زحماتهم وجهودهم، ومن هنا فهم یشـعرون بالفخر والاعتزاز بعملهم، فاذا کنّا نفکر بهذا الأسـلوب تجاه الموضوعات البسیطة من عالم الوجود، فهل یسعنا التحفظ عن التفکیر بشأن أعظم وأکبر مسألـة تتعلق بظهور هـذا العـالم، أى بشـأن المُبـدىء الأول لعالم الخلق (على فرض عـدم أثره فى حیاتنا ومصـیرنا)؟ الثانى: إنّنا نسـتنتج من الأبحاث السابقـة أنّ لهذه المسألة أثراً عمیقاً فى حیاتنا الفردیة والاجتماعیة والمادیة والمعنویة ویرتبط بها مصـیرنا إلى حدّ بعید، کما أنّ إصـلاح الفوضى القائمة وتجاوز الأزمات التى أفرزتها حیاة المکننة لا یمکن ولا یتمّ إلّامن خلال الاعتقاد بذلک المبدأ. کمـا لا تتحقق طمأنیتنا الروحیـة وتجـدد قـدرتنا المعنویـة تجاه مشاکل الحیاة دون الاسـتناد إلى ذلک المبـدأ، وعلیه فکیف یقال لیس هنالک من أثر لحل هذه المسألة فى حیاتنا الیومیة ولابدّ من تنحیتها وعدم إرهاق الفکر بشأنها؟

لایمکن الاکتفاء بالاعتماد على الحس بمفرده

اشارة

إنّ حواسنا تضلّنامالم تستند إلى العقل

ذریعة أخرى مهمة:

الذریعـة المهمّـة الأخرى التى ذکرهـا البعض بهـدف الهروب من التفکیر بالمُبـدىء الأول لعالم الوجود وهى: لعلنا نقرّ بأنّ حل هـذه المشـکلة یساعـدنا فى حل الکثیر من المسائل، إلّاأنّه من المؤسف له هو تعـذر حل هـذه المشـکلة، وبعبارة أخرى لیس لدینا من سبیل لنفى أو إثبـات وجود اللَّه، وذلـک لأنّـه: لیس هنالـک من قیمـة علمیـة تثبت لشـىء مـا لم یخضع للإختبـار والمشاهـدة، فمـا لا یمکن إخضـاعه للتجربـة یتعـذر إثباته، ولما کان إثبات أو نفى اللَّه غیر متیسر بالتجربـة یتعـذر إثباته، ولما کان إثبات أو نفى اللَّه غیر متیسـر بالتجربـة والمشاهـدة، فلا بـد من الاعتراف بعـدم إمکانیـة حل هـذه المسألـة بالأسـلوب العلمى، فلا ینبغى إزعاج الفکر بذلک! بعبارة أخرى إنّ البحث بشـأن «المُبـدىء الأول للوجود» و «خـالق العـالم» وإن کان من الأبحاث الشـیّقة والقیّمـة، غیر أنّ المؤسف له هو أنّه خارج عن دائرة حسّـنا، ولا یرى العلم الیوم من قیمة للأشیاء الخارجة عن الحس وذلک لعدم وجود سبیل لإثبات ذلک. وبصورة عامة فـإنّ الخوض بمـا هو خارج عن دائرة الحس إن لم سـر الوجود، ص: ۸۴ یکن خطیراً، فعلى الأقـل مـدعاة للقلق والحیرة، فما أحرانا أن ننـأى بأنفسـنا بعیـداً عن هـذه الحیرة، ومـا أکثر الأفراد الـذین ولجوا هـذا الوادى فلم یتمّوا نصـفه حتى عادوا وهم حیارى، فقـد اعتـدنا التعامل فى حیاتنا على ما یرتبط بحسّـنا، ولیس لنا تعامل مع الوجودات الخارجـة عن دائرة المشاهـدة والحس والاختبار! و لعل هذا هو السـبب فى کثرة أنصار وأتباع المدرسـة الفلسـفیة الحسّـیة. وأتباع هـذه المدرسـة من قبیل «جان لوک» الانجلیزى (أحد فلاسـفة القرن السابع عشـر) الـذى یعتبر من زعماء المدرسـة المـذکورة وتلامـذته من قبیل (دیفیـد هیوم) و (جورج برکلى) وهما من فلاسـفة القرن الثـامن عشـر، یرون أنّ الحس هو أساس جمیع معلومات الإنسان، ولا یرون من إصالـة لما خرج عن هـذه المنطقـة. المدرسـة الفلسـفیة

البراغماتیة، وهی إحدی المدارس الفلسفیة الحدیثة التی ظهرت فی النصف الثانی من القرن التاسع عشر والنصف الأول للقرن العشرین بزعامة بعض الفلاسفة مثل: (جان دیوئی) و (ولیم جیمز) الأمریکی، هی فی الواقع صورة أخری للمدرسة التی تعتقد باصالة الحس. أمّا «باتلر» مؤلف کتاب المدارس الفلسفیة الأربعة علی غرار البروفسور «جایلدر» مؤلف کتاب «البراغماتیة الامریکیة والتعلیم والتربیة» فقد تعرض للعالم من وجهة نظر البراغماتیة فذکر له عشرة خصائص، أحدها کالتالی: سر الوجود، ص: ۸۵ «یری البراغماتیون أن لیس للعالم من واقع سوی بالتجربة، فهذه الفلسفة فلسفة طبیعیة وتجریبیة، حیث تعتبر أمراً حیویاً وفی ذات الوقت متغیّر یشکل أساس العمل». وعلی ضوء هذه الأسالیب الفلسفیة الحدیثة کیف یمکن البحث عمّا وراء المحسوسات کالخالق العظیم؟ وبصورة عامة فإنّ المسائل الحسّیة إنّما تستند إلی مقیاس واضح وهو التجریة والمشاهدة والاحساس الذی یتفق علیه الجمیع ولیس للخطأ من سبیل إلیه، بینما یسلب منّا المقیاس الذی من شأنه تمییز الحق من الباطل فیما إذا تجاوزنا المسائل الحسیة والطبیعیة، حیث تکون فی مثل هذه الحالة أشبه بالمهندس الذی یرید تحدید مساحة أرض وأبعادها دون أن تکون لدیه أیّة وسیلة، وهذا ما لا یمکن أبداً، وزبدة الکلام فإنّ هذا الطریق مغلق ولا ینبغی أن ننطح برأسنا هذا الجدار (هذه هی خلاصة آراء أتباع المدرسة الحسیة). وللوقوف علی مدی مجانبة هذا النمط من التفکیر للحقیقة فلابدّ من تسلیط الضوء علی بعض المواضیع.

الحواس لوحدها تخوننا:

قد یبدو للوهلة الاولی أنّ المحسوسات هی أوضح معلوماتنا، إلّا أنّ أدنی تمعن یشعرنا أنّ الأمر لیس کذلک، ولو اکتفینا فی المسائل سر الوجود، ص: ۸۶ الفلسفیة وحتی المسائل العلمیة بالاعتماد علی المحسوسات لوقعنا قطعاً فی ضلال مبین فقد شحنت کتب علماء النفس بالأخطاء التی تعرض الحواس بما فیها الباصرة، حیث ذکروا عشرات الأخطاء للعین. فما نردده من القول «لا أصدق حتی أری بعینی» یفید أنّ العین من أوثق السبل لإدراک الواقعیات وهذا من أکبر الأخطاء، وذلک لأننا نری بعیننا عدّة أشیاء لا واقع لها؛ الأمر الذی یکشف عن إشتباه العین أو عدم قدرتها علی الإدراک، علی سبیل المثال لو أمسکنا بمشعل وجعلنا ندوره لرأیناه علی شکل دائرة من النار، والحال إننا نوقن بعدم وجود مثل هذه الدائرة فی الخارج، ولم یخدعنا بذلک سوی العین، وهکذا الحال بالنسبة للاعلانات الضوئیة التی ترینا مختلف الأطیاف والأمواج الجمیلة بواسطة مصابیحها الملونة، فی حین لا واقع لتلک الأطیاف وکلها ناشئة من أخطاء الباصرة، فلو کانت أعیننا تری الأشیاء علی حقیقتها فلیس هنالک من وجود لهذه الألواح الجمیلة، بل هذه السینما وأفلامها الصاخبة إنّما تتمّ علی أساس استغلال خطأ الباصرة، لأنّ العین لو لم تخطیء، فإنّ أفلام السینما لیست أکثر من حفنة صور منفصلة ومتفرقة ولیس لها أن تشد إلیها الانظار. ربّما لیس هناک من لم یر منظر السراب من بعید حین سفره فی فصل الصیف، فهو یبدو کأمواج جمیلة من الماء وسط الجادة، وحین نقترب لا نری سوی صحراء قفراء، فیتضح أنّ ذلک کان بسبب انکسار الضوء وخطأ الباصرة، بل کلنا نری الهروب السریع للقمر من سر الوجود، ص: ۸۷ خلال سحب الغیوم فی اللیالی المقمرة، وکأنّه جاسوس یفرّ من مخالب الشرطة، والحال لیس الحرکة للقمر، بل السحب هی التی تتحرک وتمر بسرعة، بینما نراها ساکنة والقمر متحرک، وهذا خطأ آخر من أخطاء الباصرة.

و نقرب المطلب أکثر:

الکل یزعم أنّ الموضوع الفلانی «ملموس» أو إننا لمسنا الحقیقة الفلانیة، کنایة عن أنّ الموضوع فی غایة الوضوح، والحال حس اللامسة هو الآخر زائف، فإن قلت لیس الأمر کذلک، قلت لک: أعد ثلاثة ظروف من الماء، أحدها حار جدّاً (بحیث لا یحرق یدک) والثانی بارد جدّاً، والثالث معتدل، ثم إغمر إحدی یدیک لمدّة قلیلة فی الماء الحار والاخری فی الماء البارد، ثم اغمرهما معاً فی الماء المعتدل، آنذاک ستری ما یذهلک حیث ستشعر باحساسین متضادین فی آن واحد، حیث تخبرک إحداهما بأنّ هذا الماء الثالث بارد

جدّاً، والاخرى أنّه حار جدّاً، وإن جربت ذلک بإصبعین تحصل على نفس هذه النتیجة العجیبة، والحال أنّه ماء له درجة حرارة معینة واحدة. مثال آخر: ضع إصبعک الوسطى على الخنصر ثم حرکهما على ورید صغیر فی یدک الاخرى بحیث یکون تحتهما، آنذاک ستشعر بوجود وریدین، حیث ستفید اللامسة أنّ ۱: ۲، وهکذا سائر الأمثلة، فهل یمکن والحالة هذه الاعتماد على الحس بمفرده؟ أم هل یمکن إلغاء دور الإدراکات الذهنیة والعقلیة التی من شأنها تصحیح أخطاء سر الوجود، ص: ۸۸ الحواس ومنع الضلال؟ فمن المسلم به إننا نقول بأنّ الحس قد أخطأ فی الموارد المذکورة ومئات الحالات الأخرى من هذا القبیل؛ والأمر هذا من الأحکام العقلیة التی تستند إلی ما وراء الحس، والواقع هو أنّ هذا الحکم العقلی هو المقیاس والأداة لإصلاح حواسنا وتسدیدها فیما یلتبس علیها من أمور. وعلیه فإن قلنا بفقدان قوانین الحس لقیمتها ما لم تخضع لقوانین الذهن فلا نرانا قد جانبنا الحقیقة.

إعترافات الفلسفة الحسیة والبراغماتیة:

الطریف فی الأمر أنّ فلاسفة الحس الذین أسسوا المذهب الحسی قد اعترفوا بأنّ المحسوسات لیست لها واقعیة وتفتقر إلی القیمة النظریة، بل یقتصر دورها على القیمة العملیة، أی لابدّ من الاعتماد على الحس فی شؤون الحیاة کصنع سفینة وإعداد السیارة والماکنة وتشغیل الحقل الزراعی و ... لکن لیس لأیمن هذه الإدراکات الحسیة أن توضح لنا الحقائق والواقعیات کما هی بحیث یعتمد علیها من حیث المعرفة والاصول النظریة، على سبیل المثال أقر (جان لوک- الفیلسوف الانجلیزی وأحد زعماء المدرسة الحسیة- عقیدة دیکارت مؤسس الفلسفة العقلیة فی القرون الأخیرة- بشأن نفی القیمة العلمیة للمحسوسات وقال: «لیس من المعقول التنکر للموجودات المحسوسة، إلّاأنّ الیقین بها لیس کالیقین بالمعلومات سر الوجود، ص: ۸۹ الوجدانیة، ویمکن عدها فی مصاف الظنون والتصورات من وجهة النظر العلمیة والفلسفیة، أمّا على مستوى الشؤون الیومیة للحیاة فلابدّ من الیقین (علمیاً) بحقیقة المحسوسات». والعجیب أنّ بعض أتباع (جان لوک) مثل (جورج برکلی) و (هیوم) رغم أنّهم یرون الاصالة للحس فی العلم، إلّاأنّهم لا- یرون أیّة قیمة واعتبار للإدراکات الحسیة، حتى أنّهم أنکروا الوجود الخارجی لمحسوساتنا. البراغماتیون رغم أنّهم یبحثون کل شیء من زاویة آثاره الخارجیة ویرون الوجود والعدم لواقع حسی وذهنی إنّما یتوقف على تأثیره فی حیاة الإنسان ومن هنا ینبغی تسمیتهم بالفلاسفة التجار لا الفلاسفة الواقعیین، إلّاأنّهم یعترفون بأنّ مسائل ما وراء الطبیعة خاضعة للبحث والدرس، مثلًا، یقول ولیم جیمس- وهو من زعماء المدرسة البراغماتیة- بشأن اللَّه: «رغم أن تصوره لیس واضحاً جلیاً کالتصورات الریاضیة، إلّاأنّ له قیمة عملیة على مستوى حیاة الإنسان من حیث کونه نظاماً مثالیاً لابدّ من حفظه دائماً، والاعتقاد به یجعل الأفراد یرون وقتیة بعض الأمور الألیمة کما یجعل الفرد من الناحیة النفسیة یعیش حالة الهدوء والسکینة والطمأنینة، وبناءً على هذا یمکن توجیه قضیة وجود اللَّه» «۱». سر الوجود، ص: ۹۰ والنتیجة التی نخلص إلیها ممّا سبق هی أنّ الحس لایمکن الاعتماد علیه بمفرده، فهو لایمکنه سوى أن یکون وسیلة وأداة لدى الفکر والذهن. بحیث إذا لم یخضع لسلطة العقل والذهن فلیس من شأنه أن یحل مشکلة فحسب، بل یصبح أداة للاضلال أیضاً.

جواز سفر لعالم ماوراء الحس

اشارة

الحس بمفرده لایحل مشکلة سر الوجود، ص: ۹۳ من العجائب فی هذا العصر أنّ بعض الصفات الروحیة للإنسان من قبیل المثابرة والإرادة والدقّة والتحمل وأمثال ذلک أخذت تحسب وتقاس بالعقارب وبعض الوسائل والأدوات بحیث اکتسب کل شیء طابعاً حسیاً لنفسه، لکن مع ذلک لیس للحس بمفرده ودون سلطة العقل والموازین الفکریة أن یحل أیّة مشکلة. الواقع هو أنّ المدرسة الحسّیة قد انهارت وتآکلت من الداخل والأشخاص الذین اکتفوا بالحس فی مطالعاتهم سوف لن یتمکنوا قط من حل وکشف الأسرار العظمى

للوجود. ونضيف إلى ذلك: إنّ هؤلاء الأفراد كالجنين الذى ينمو فى بطن أمه ويفترض أن يتمتع بعقل وشعور كافٍ، فمن المسلم به أنّه يرى نفسه الموجود الحى الوحيد لعالم الوجود، والخارطة التى يتصورها لعالم الوجود يكون مافوق رأسه شمالها وتحت قدمه جنوبها وطرفه الأيمن والأيسر شرقها وغربها، وقلبه سيكون بالطبع مركز هذا العالم. أو كدودة القز التى تقبع داخل شرنقتها وتتصور أنّ العالم عبارة عن مجموعة خيوط حرير تحيط بها وهى قابعة فى مركز العالم!! والطريف أنّ خطأ الحواس على درجة من الكثرة بحيث دعت طائفة من الفلاسفة إلى انكار وجود المحسوسات بصورة كلية، سر الوجود، ص: ۹۴ والاعتقاد بأنّ ما نراه بحواسنا فى عالم اليقظة كالصور والمناظر التى نراها فى الأحلام الجميلة أو الرؤيا المخيفة فهى خيالية جوفاء لا حقيقة لها. وهذه هى «المدرسة المثالية» التى تشتهر بكثرة أتباعها من بين الفلسفات القديمة والجديدة، فهى ترى عالم الوجود مركباً من الأفكار والتصورات فقط، صحيح أنّ الخيالات والمشاجرات العابثة أو الفلسفة الوهمية والمضحكة أحياناً شجعت بعض الفلاسفة القدماء من أنصار مدرسة الاصالة الحسية لانكار كل ما وراء الحس، إلّاأنّ هذا الانكار هو غير منطقى بنفس الدرجة التى بلغتها المدرسة المثالية التى خلصت من أخطاء الحواس إلى نتيجة غير معقولة مفادها إنكار الموجودات الحسية بصورة كلية، فكلاهما قد أخطأ فى حساباته.

العالم الحسى فى اتساع دائم:

لابأس أن نسلط الضوء الآن على هذا الموضوع وهو إننا حين نتحدث عن الحس والموجودات الحسية فإننا لا نشير إلى حقيقة ثابتة ومشخصة، بل إلى واقع مختزن فى هذه الكلمة فى حالة تغيير واتساع تتناسب والتطور والتقدم الذى يطرأ على أدوات ووسائل المطالعات الحسية. لقد كان عالم المحسوسات ذات يوم يقتصر على بضعة آلاف من الكواكب التى كنا نشاهدها بأعيننا فى أنحاء السماء، كما كان يحتمل أن تكون أصغر وحداتها هى هذه الذرات المعلقة من الغبار، أمّا اليوم سر الوجود، ص: ۹۵ فقد مكنتنا أدوات ووسائل الأبحاث العلمية من مشاهدة آلاف الملايين من الكواكب فى السماء وملايين الوحدات الصغيرة المعلقة فى مركز تلك الذرة من الغبار، فهل العالم المحسوس اليوم هو ذات العالم المحسوس بالأمس؟ يمكن تشبيه الوضع فى الماضى والحاضر بذلك الزنبور الذى ولج أعماق غابة مترامية الأطراف وهى تضم مئات الملايين من الأشجار الضخمة وقد حط على غصن شجرة ليرى بعينه الضعيفة بضعة أغصان وأوراق أحاطت به من كل عالم الوجود، والوحدة الصغيرة له هى الورقة الصغيرة للشجرة والوحدة الكبيرة هى عدّة غصون حوله، فلو كان لهذه الحشرة مكبرة ومكريسكوب لترى من جانب جميع أرجاء الغابة الواسعة، ومن جانب آخر ترى آلاف الخلايا والألياف الحيّة فى الورقة الصغيرة الواحدة، فهل عالم الوجود واحد فى الحالتين بالنسبة لهذه الحشرة؟ من أين سندرى أنّ العالم سيشهد فى المستقبل مثل هذه القفزات بحيث تكون مقارنته بما عليه اليوم أعظم من مقارنته عمّا كان عليه بالأمس، فهل هناك احتمال ينفى ذلك؟ وعلى هذا الأساس أفلا يبدو الاعتماد على المحسوسات- وبالمقدار المحدود الذى نعيشه- من الناحية العملية ضرباً من ضيق الأفق وبعيداً عن المنطق؟

دور العقل فى تسديد الحس:

قلنا: إنّه لدينا اليوم مختبرات فى علم النفس تضم سلسلة من الوسائل والأدوات المادية لقياس صفات الإنسان وروحياته، فبعض الصفات من قبيل الدماثة والتحمل وسرعة الانتقال والدقة و ... كل ذلك يقاس بالعقارب والصفحات ذات الاشارات على غرار سرعة سير السيارة التى تحسب بواسطة مقياس السرعة. ولعل الكلام عن وجود مثل هذه المختبرات يبدو غريباً لمن لم يرها لأنّ روح الانسان ليست كالدم ليقاس ضغطه. لكنّى ككثير من الناس رأيت ذلك فى بعض المختبرات المجهزة، مثلًا إذا اريد امتحان المثابرة والتحمل لدى شخص، فهناك جهاز له زون معين (لا ثقيل ولا خفيف) ينبغى أن يمسكه الشخص المطلوب اختباره ويرفع يديه بصورة منتظمة جانبى جسمه لتشكل خطاً أفقياً مع كتفيه، كما يربط شريطاً خاصاً بيده يكون موصولًا بسلك الكترونى، ففى كل مرّة يرفع يده يسجل

الجهاز درجة، إلى جانب ذلك فإن رفع اليد للحد المطلوب له علامة واضحة في الجهاز. طبعاً يتلقى الشخص أوامر منتظمة بحركة يديه دون أن يقال له لأى اختبار يخضع، وطبيعى أنّ الأفراد الذين لا يملكون التجلد والمثابرة إنّما يسأمون سريعاً من هذا العمل الرتيب والذى يبدو لاطائل من ورائه فلا- يرفعون أيديهم إلى الموضع المطلوب بعد تحريكها مرتين أو ثلاثاً، فتشير العقارب إلى التفاصيل على الشاشة الخاصة حيث تعكس عدم التحمل الطبيعى لهذا الشخص، وبالعكس سر الوجود، ص: ۹۷ فإنّ الفرد المثابر والمتحمل يرفع يديه على الدوام وبصورة منتظمة إلى المستوى المطلوب فتتضح درجة تحمله ليعلم مثلًا أن هذا الفرد يصلح للأعمال الرتيبة والمتعبة التى تتطلب تحملًا كبيراً. وهكذا توجد أجهزة أخرى تختبر الدقّة وسرعة الإيعازات السمعية والبصرية، والاستعداد للقيام بأعمال معينة ومدى الحب والرغبة بالعمل وما إلى ذلك. من جانبى لما رأيت هذه الأجهزة فكرت مع نفسى أنّ جميع الأشياء فى عصرنا الراهن قد اتخذت صبغة حسية، ولعله يأتى اليوم الذى يقاس فيه مدى نفرتنا من الشخص الفلانى أو الشىء الفلانى ومقدار الكبر والحسد والبغض لدى هذا وذاك، بنفس الدقّة التى يسجل فيها المحرار درجات الحرارة. ولعل الأعم الأغلب سمع عن جهاز معرفة الكذب حيث تشير عقاربه على الشاشة الخاصة لصدق كلام الإنسان من كذبه، والجهاز المذكور ليس من قبيل الأجهزة السحرية والمشبوهة المعقدة كما يظن البعض ذلك، وأساسه هو تأثير الصدق والكذب فى الإيعازات العصبية ومن ثم فى الدورة الدموية وضغط الدم ونبض القلب. لكن ورغم كل ذلك فهناك حقيقة لايمكن انكارها، وهى عدم جدوى الحس مالم يخضع لسلطة العقل؛ حيث يمكن الإشارة إلى فلسفة هذه السلطة على صعيد (الإصلاح والتجريد والتعميم والعلية والتقنين) وإليك تفصيل كل واحد منها: أمّا «الإصلاح» فكما قلنا إنّ حواسنا ترتكب مئات الأخطاء، سر الوجود، ص: ۹۸ ولدينا عدّة أبحاث فى كتب علوم النفس بشأن أخطاء الحواس، وهنا نتساءل: من هذا الذى يقف ويرصد أخطاء الحس؟ لا شك إنّه سلطة العقل والنتائج التى يحصل عليها من خلال مقارنة الحوادث، مثلًا يحكم العقل والمنطق باستحالة اجتماع الضدين فى آن واحد ومحل واحد، وعليه فالماء لا يمكن أن يكون فى لحظة واحدة حاراً وبارداً. فإن كانت يدنا اليمنى سابقاً فى ماء حار واليسرى فى ماء بارد، وغمرناهما فى ماء شبه حار فإن أخبرتنا اليد اليمنى ببرودته واليسرى بحرارته فهما كاذبتان، لأنّ الماء الواحد يستحيل أن يتصف بحالتين متضادتين فى آن واحد، ويعزى هذا الخطأ إلى حاستنا اللامسة التى تأثرت بالحالة السابقة، وهنا يتضح دور العقل والذهن فى إصلاح أخطاء الحواس. وأمّا بشأن «التجريد والتعميم والتقنين» فدور العقل أوضح. فقد تقذف زجاجة نافذة باب غرفتنا بحجر فتكسر، فهذه حادثة حين يراها الإنسان لأول مرّة فى حياته لا يمكنه أن يقف على قانون كلى وأساسى لهذه الحادثة، فلعل كسر الزجاجة كان بسبب ذات الزجاجة أو ذلك الحجر أو ذلك المكان أو تلك اللحظة وما إلى ذلك. مرّة أخرى يقذف حجر آخر على زجاجة فى مكان وزمان آخر فتكسر، فالحسّ من جانبه وكالمرة الأولى يدرك الحادثة، حيث نسمع بأذننا صوت تكسر الزجاجة، ونرى بعيننا تساقط قطعاتها على الأرض، أمّا من حيث الحس فإنّ أى منهما ليس بقانون، بل حادثتان، سر الوجود، ص: ۹۹ (وعدّة حوادث مشابهة أخرى مع بعضهما ويخضعهما للتحليل. بادىء ذى بدء يحذف قيود الزمان والمكان وجنس الزجاجة ومقدار الحجر و ... ثم يعمم بالتجريد هذه الحادثة على سائر الموارد، وبعد القيام بهذه المطالعات يخلص إلى قانون فيقول «الحجر يكسر الزجاجة». فهذا قانون عقلى حاصل من عدّة نتائج وأفعال رتبه الذهن على أساس الحوادث الحسية، ففى هذا القانون «حجر وزجاج وكسر» معنى واسع شامل ينسحب على عدّة موارد لم يرها الإنسان قط، ويمكن لكل فرد فى ظلّه أن يتكهن بالحوادث المشابهة لهذه الحادثة فى حياته. فالبحث الذى أوردناه بشأن هذا المثال البسيط يصدق على أهم وأدّق الاختبارات العلمية، يعنى لولا- تدخل سلطة العقل سوف لن يكون هناك أى قانون علمى (عليك بالدقّة). النقطة الأخرى التى تواجه انكار أتباع مدرسة (الأفكار ما وراء الحس) هى أنّ أوثق العلوم اليوم هى العلوم الرياضية، فالنتائج المتحصلة من القضايا الرياضية المعقدة ومختلف المعادلات هى أوثق حتى من المسائل الحسية، ولولا اسعاف الرياضيات للعلوم التجريبية لما استطاع الإنسان قط شق طريقه إلى الفضاء ولا تمكن من النزول على سطح القمر. فلابدّ أن تعد العقول الالكترونية وعلماء الرياضيات مسبقاً كافّة الحسابات اللازمة لهذا العمل وتوفر جميع الإمكانات الضرورية له. سر الوجود، ص: ۱۰۰ وبالرغم من كل

ذلک فإنّ المسائل الرياضيـة هی مسائل ذهنية حسيّة، وهی تدور حول مجموعة من المخلوقات الذهنية التی يصـطلح عليها بالعدد وما شابه ذلک. وعلی هـذا الأساس فکيف نقتصـر علی مرحلـة الحس ونلغی‌ما ورائه؟ تمکنا لحـد الآن من تمهيد السبيل أمام المطالعة فی حقائق الوجود وإن کانت خارجـة عن دائرة الحس المحـدودة والصـغيرة، وقـد تسلمنا جواز السـفر نحو العالم ماوراء الحس، ومن هنا نؤکد لأولئک الذين يخشون مطالعة ماوراء المحسوسات، أن لا سبيل أمامهم سوی سلوک هذا الطريق.

الاعجوبة الصناعية لعصرنا

الشـعور الـذی سـاورنی حين رأيت لأول مرة العقل الألکترونی المجهز سـر الوجود، ص: ١٠٣ نشـعر الآن باستعدادنا لابتداء السفر إلی ماوراء الحس، لکن من البديهی أن تکون انطلاقتنا من عالم الحس، تعالوا نبدأ سفرنا من داخل أنفسنا، ونرکز بادیء الأمر علی الدماغ الـذی نفکر به، وأرانی مضـطراً قبـل ذلـک لأن أصـحبکم لمشاهـدة الـدماغ الألکترونی لکی يتضـح لـدينا سبيل البحث. کنت أتصور کسائر الأفراد أنّ العقل الألکترونی کما يبـدو من اسـمه أعجوبـة حيث يقوم فی مـدّة قصـيرة بما يؤدّيه مئات العقول والأدمغة البشـرية، وفی الحقيقـة فقـد حطم جـدار «اسـتحالة زيـادة الفرع علی الأصـل» ليتحـول إلی جهـاز ينبغی لنفس الإنسـان أن يلتمسه ويرجـوه لحل مشاکله. مهد الأصدقاء الفرصة أمامنا لمشاهدة هذه الأعجوبة الصـناعية والتی کانت مسـتخدمة فی إحدی المؤسسات الصناعية الکبری کان جهاز بحجم آلـة طابعـة کبيرة (بضـعة أمتار مکعبـة مع عجلة ولوالب وصامولات وما کنة معقدة علی غرار أغلب المکائن). حکی الأصـدقاء بعض القصـص والحکايات عن فنية هذا الجهاز فقالوا، لو کتب اسم السـفينة الفلانية علی بطاقة مخصوصة (طبعاً ليس المراد الکتابـة بـالقلم، بل باللسان الـذی يتعامل به ذلک الجهاز من سـر الوجود، ص: ١٠۴ خلالـل الثقوب المختلفـة التی کانوا يعملونها علی البطاقة) ووضـعت فی الجهاز لتطبع خلال مدّة قصيرة کافة تفاصيل تلک السفينة ومدّة الشحن والسفّان وسائر الأمور ولقدّمها لنا بالخط اللاتينی الواضح دون أی أخطاء. کما قالوا: لو أمرت هذا الجهاز (العقل الألکترونی) بأن يرسم خارطة الجزيرة الفلانية، لقام فوراً برسم خارطـة رائعة جميلة لتلک الجزيرة بکافة تفاصـيلها ولسـلمها لک بعدّة نسخ بما يجعلک تعيش الدهشة والحيرة، والأهم من کل ذلک لو طرحت بعض المطالب علی شـکل أسـئلة بحيث يجب أن تستفيد من عدّة بطاقات بأرقام متسلسلة وحشرت بعضها خطأ، فان الجهاز يتوقف بمجرد وصوله إلی البطاقـة الخاطئـة فتـدور عتلة بسـرعة فائقة ليطالعک خط واضح بأنّک وضـعت البطاقة بصورة مخطوءة، وما ينبغی لـک أن تقوم به لإصـلاح ذلـک. ولمـا کـان هـذا العمـل يـدعو- أکثر من غيره- للـذهول والدهشـة فقـد تقرر أن يعملوا ذلک ويجربوه لنـا عملياً، فقـد اختـاروا عشـرة بطاقـات للسؤال کتبت عليها بعض المطالب، وکان من المقرر ترتيبها مع بعضـها ووضـعها فی الجهاز ليتلقوا الاجابات السـريعة عليها، وهنا عمد المهندس المسؤول إلی ارتکاب خطأ، مثلًا جعل البطاقة رقم «۵» بدل البطاقة رقم «۶» ثم ضغط زر الجهاز، فقام سريعاً بدراسة ومطالعة بطاقات الأسئلة، فلم يکد يصل البطاقة رقم «۶» حتی توقف، فباشر العمل جهاز کشف الأخطاء ودارت العتلة بسـرعة فائقه لتصدر هذه العبارة بالانجليزية علی سبيل الأمر: «لقد وضعت البطاقة رقم «۶» سر الوجود، ص: ١٠۵ خطأ، اسـتبدلها بالبطالة رقم «۵» ولاـ تکرر ذلـک ثانيـة ...؟». وهنـا بلغ إعجابی ذروته، ياله من «رقيب» و «عتيـد» عجيب، يقوم بأعمالنا أسـرع وأفضـل، کمـا يضـبط أخطاءنـا ويهـدينا إلی إصـلاحها وکـأنّه أسـتاذ خبير ماهر؟ يالها من حافظـة؟ ياله من ذکاء؟ يالها من دقة وصـراحة منطقية؟ لقد صـنع الإنسان شـيئاً فاقه قدرة، بل سيمارس سلطته وسيادته علی هذا الإنسان، ومن يدری لعلهم حبسوا فيه بعض الأرواح الرفيعـة والشـياطين! يا إلهی! ... طبعاً کان إلی جانب ذلک الجهاز المـذهل مخزن کبير نسبياً، ولما مـد أحد الأصدقاء يده من قريباً منه وإذا به يخرج شريطاً ضخماً وقال: هذه إحدی حافظات عقلنا الألکترونی حيث يتمّ من خلالها تبادل الأسئلة بيننا وبين الجهاز. أخيراً أدرکنا أنّ هذه الأعجوبة، کأغلب الأفراد فی زماننا، لها ظاهر وباطن! لا يمکن لهذا الجهاز العجيب أن يجيب علی کل سؤال، بل يقتصـر علی الأسـئلة التی أعدت أجاباتها مسـبقاً مثل الشريط وقد أودعت فی حافظته، فإن رسم خارطة جغرافية، فسابقاً أودعوا حافظته مثلًا خارطـة الجزيرة الفلانيـة، فإن أمرته برسـمها، فإنّ هـذا السؤال يحرک نقطـة معينـة فی الحافظة ويشـرع الشـريط بالعمل ويسـلمک

الخارطـة التى أودعهـا العـالم الفلاـنى حافظته مسـبقاً، وعليه فإن أودعت حافظته مائـة فرع علمى، ثم سألوه عن الفرع مائـة وواحـد لما أجاب ...! الواقع إنّ هذا الجهاز بمثابة ببغاء ضـخم وسـريع وخفيف ذى عدّة سـر الوجود، ص: ۱۰۶ أسـرار يقول كل ما أودع وقيل له قل، والجهاز وإن فاق الإنسان كسائر المكائن والآلات فى سـرعة العمل، إلّاأنّه ورغم هذه القدرة الظاهرية والخلابة ليس له أدنى قدرة على الإبـداع والإبتكار، فهو ليس إلّا حافظـة، وعلى العكس من دماغ الإنسان الـذى يسـعه بيان عالم من الإبداع بما يتناسب والحوادث التى تقع. وهنا اتّضـح أنّ هـذه الأعجوبـة الصـناعية ومهما كانت سـعتها فهى محدودة بما يودع فيها ... لا أكثر من ذلك، والحال دماغ الإنسان ليس بمحدود وله القدرة على التفكير بالأسئلة المستجدة غير المطروحة والإجابة عليها. فلو فرض أن اجتمع كافة علماء وخبراء العالم واتفقوا، بدلًا من التنافس الخاطىء والتسابق من أجل إنتاج وصنع الأسلحة الفتاكة، على صنع عقل ألكترونى بحجم مدينة كبيرة، بل بقـدر جبل عظيم وجعلوا له أشـرطه حفظ كثيرة بحيث لا تسـعها أعظم مخازن ومسـتودعات العالم، وتغـذى بكافة المسائل العلمية، فإذا برزت أيّة مشكلة فى المباحث الأدبية والطبية والصناعية والفلسفية والرياضية والاقتصادية و ... توجهوا بالسؤال لأعجوبة الدهر هذه فيحصـلوا على الجواب المناسب بأقصـى سـرعة، كما يقوم آلاف المهندسين بالاشراف على ذلك الجهاز وصيانته. والسؤال المطروح: هـل سـيكون لهـذا الـدماغ العظيم والضـخم الأـلكترونى وبجميع هـذه المفردات قيمـة دمـاغ الإنسـان الـذى لايزن أكثر من كيلو غرام ونصف؟ لابدّ من القول صـراحة: لا، كلا، أبداً! ... سر الوجود، ص: ۱۰۷ وذلك لأنّ قـدرته ونشاطه محدود بما أودع به من حافظات، وهو عاجز إزاء المسائل الجديدة غير المتكهن بها، ليس له من إبداع أبداً، وعمله ملزم بالتعلق بالماضـى، لا بالمسـتقبل حيث تبقى مثل هذه المسائل مستعصـية عليه، والحال لايعرف دماغ الإنسان من معنى للماضـى والحاضر والمستقبل، وما يستجد بعد آلاف السنين، فله أن يفكر فى كـل المسائـل ويجيب عليهـا حسب قـدرته. كـانت مشاهـدة ذلـك العقـل الأـلكترونى تمثـل بالنسـبة لى درسـاً عظيماً فى التوحيـد، الـدرس الـذى لم أسـمعه قبل ذلك أبـداً، حيث فتحت لى هـذه المشاهـدة نافذة على عالم ماوراء الطبيعة، كما بعثت شـعاعاً جديداً من الإيمان فى قلبى، فكرت مع نفسـى لو قال أحدهم: لقد صـنع ذلك الجهاز الالكترونى الجبار بتلك العتلة الكاشفة للأخطاء وسـرعة العمل الهائلـة الفريـدة، وتلك المثابرة والمطالعة الدقيقة من قبل عامل أمى ليس له أيّة معلومات فنية أو من قبيل الصدفة، فهل كان هناك من يصدق هذا الكلام؟ ألا يضـحك الجميع عليه بسـبب هذا الزعم الأجوف، بل لو زعمت الدنيا برمتها ذلك لما وسـعنى إلّاالقول بأنّها على ضـلال، وأنا مستعد لنعتهم بالمجانين، بدليل أنّهم يقولون ما لا ينبغى أن يتفوه به عاقل! فهل والحال كذلك أستطيع التصـديق بأنّ دماغ الإنسان الذى لا يزن أكثر من كيلو ونصف، وهو ما عليه من الإبداع والنشاط الذى لا سـر الوجود، ص: ۱۰۸ يعرف الحـدود، وتفوق قـدرته ذلـك العقـل الأـلكترونى الـذى له حجم مدينـة كبيرة، أنّه من قبيـل الصدفـة دون أن يكون هنـاك من برامج وخطط بهـذا الشأن؟ ليس لعاقل أن يصـدق ذلك أبـداً. ولهـذه الحقيقـة الجليّـة أن تلفت اهتمام عامة علماء العلوم الطبيعية نحو القدرة التامة والعقل الكل والحكمة المطلقة لما وراء الطبيعة، وقد التفت إلى ذلك الكثير من العلماء من قبيل أنشتاين وداروين وفلاماريون و ... ليصـرحوا بـأنّه اللّه. بينما اكتشف البعض الاخر حقيقته فقط حيث سـلكوا طرقاً أخرى فى تسـميته، وخلافاً لما يتصوره الأعم الأغلب فليس هنالـك من خلاـف بين العلمـاء بشـأن وجـود العقـل الكـل، والاختلاـف على تسـميته حيث يصـطلح عليه البعض بالطبيعـة بينما يسبغون عليها صفات اللّه من قبيل العلم والقدرة.

غرفة ذات أسرار

لم ير البشـر لحـد الآن مركزاً مشوباً بالأسـرار كهـذه الغرفـة سر الوجود، ص: ۱۱۱ كـان من المقرر أن نبـدأ بحث الأسـرار انطلاقـاً من أنفسـنا، من مركز إدراكاتنا ومن أدمغتنا وما ورائها وما يصـطلح عليه بأنفسـنا وذواتنا، وتطالعنا هنا دنيا الأسـرار التى إنّ قضينا عمرنا من أجل التعرف عليها فما زالت هنالك الكثير من الأمور الغامضة فيها. إنّه لمن المذهل حقاً أن ندرك جميع الأشـياء بعقولنا بينما نصاب بالـدوار حين نفكر فى ماهيـة التفكير لـدى هـذا العقـل. إننا نتساءل: كيف نـدرك الأشـياء؟ ما المفهوم الواقعى للإدراك؟ أين تكمن

خواطرنا؟ ما كيفية علاقة الروح بالجسم وبالخارج؟ ما الدور الذى تلعبه هذه القبضة الرمادية و التى تبدو غير منظمة ولا مستهلكة والمحبوسة هذا العمر المديد فى جمجمة الإنسان؟ وأساساً من أين تنبع كل هذه القابلية و الاستعداد العجيب المذهل؟ هذه هى الخطوة الأولى لتعرفنا على الوجود الذى يكتنفه كل هذا التعقيد، ولكن لا ينبغى أن يفهم ذلك على أننا هزمنا فى الخطوة الأولى فى سبيل حل ألغاز الوجود، ترى أليس من الأفضل أن نعزف عن هذا الأمر ما دمنا فى بدايته، ونغض النظر عن هذا «الخيال المحال»، فهذا سفر تستهلك الخطوة الأولى فيه تمام عمرنا، وعليه فما أحرانا أن نقتدى ببعض الفلاسفة الذين صوروا للجميع استحالة سر الوجود، ص: ۱۱۲ التعرف على الوجود، فنقبع فى زاوية ونتفرغ للحياة والمعيشة، ولكن هل العيش يعنى (الأكل والشرب والنوم والشهوة)؟ كلا، ليس الأمر كذلك، فمثلنا مثل المسافر الذى يمر بسيارته فى جادة فى ليلة ظلماء، فمصابيح السيارة إنّما تضىء له جانباً من الجادة وتقوده إلى المطلوب، أمّا على طرفى الجادة فهنالك الآلاف المؤلفة من المبانى والموجودات غير المعروفة والتى تغط فى ظلمة معتمة، فمن المسلم به أن عدم معرفة هذه المبانى الغامضة ليس من شأنه أبداً أن يحول دون مواصلة المسافر لسيره، بل حتى لا ينبغى له التقليل من سرعته، نحن بدورنا نشق طريقنا وسط هذه الأسرار فنندفع إلى الأمام على ضوء ما نعتمده من معارف وحلول، فكأنّ آلاف النقط المجهولة قد كمنت من حولنا، وسندنا فى هذه المسيرة «معلوماتنا» لا «مجهولاتنا». سنقف- من خلال عدّة أدلة فى بحث استقلال الروح- على هذه الحقيقة، و هى أنّ مادتنا الدماغية «وسيلة دقيقة» لأنشطة قوى خفية تدعى الروح، لا نفس الروح، وبعبارة أخرى الدماغ «بيت» لا «صاحب البيت» وبعبارة أوضح هو تلسكوب عظيم لرصد كواكب سماء الوجود لا نفس «الراصد»! و بالتالى الدماغ مهندس «غرفة السيطرة». ولما انسحب الكلام إلى «غرفة السيطرة» دعونا نتحدث قليلًا سر الوجود، ص: ۱۱۳ عنها، فمثل هذه التشبيهات والأمثلة تذلل الطرق الصعبة. فنرى هذه الأيّام- حين نتفقد بعض المؤسسات الصناعية الحديثة والضخمة- غرفة تعرف باسم «غرفة السيطرة»، وتمتاز هذه الغرفة بهدوئها وسكونها، إلّاأنّها مليئة بالشاشات والأزرار والمفاتيح والمصابيح الصغيرة الملونة، ويتولى المهندسون من داخل هذه الغرفة السيطرة والاشراف على كافة جزئيات تلك المؤسسة الصناعية التى قد تبلغ سعتها أحياناً عشرات الكيلو مترات المربعة. فالضغط على زر معين يشغل قسماً من تلك المؤسسة وبفتح أو بغلق ذلك الأنبوب الكبير بصورة تلقائية، وبضغط الزر الفلانى يحدّون من سرعة ذلك الجهاز أو يضاعفون من سرعته، وإذا اشتعل الضوء الأحمر للمصباح دلّ على الخطر الفلانى فى ذلك القسم، والأهم من كل ذلك العقارب والمؤثرات المتناثرة على الشاشات والتى تشبه إلى حد بعيد صحيفة أعمال الإنسان، حيث تعكس طريقة عمل كافة الأجهزة. والواقع هو أنّ دماغ الإنسان غرفة سيطرة فى معمل بدن الإنسان، فتلك الغرفة المليئة بالأسرار ومن خلال ما أودعت من أزرار ومصابيح بمجرد إثارتها لخلية أو بعض الخلايا يشرع قسم من بدن الإنسان بالعمل أو بالعكس يتوقف عنه، فالقلب والمعدة وجهاز التنفس والعين والاذن واللسان إنّما تعمل بالأوامر الصادرة من غرفة السيطرة هذه، والفارق بين هذه الغرفة وسابقتها فى أنّ أزرارها ومصابيحها تنبض بالحياة، كلها حيةٌ تتغذى وتنمو، إلّاأنّها صغيرةولطيفة للغاية. سر الوجود، ص: ۱۱۴ ورغم أنّ خلاياه أكثر لطافة من أوراق الأزهار، إلّاأنّها أكثر دواماً من الحديد والفولاذ، فهى تصلح نفسها على الدوام، كما تختلف مع كافة المكائن ذات الحركة الرتيبة حيث تعرف بالتجدد والسير نحو التكامل، والعجيب أنّ هذا الجهاز لا يفقد حيويته وقدرته حتى فى حالة ضعف سائر القوى البدنية واتجاهها نحو العجز والتآكل، طبعاً بشريطة قيامه بوظيفته وعدم تعطيله. أو ليس هذا ما نراه بوضوح لدى العلماء والمفكرين وزعماء السياسة والاقتصاد الذين يتمتعون حتى آخر لحظات عمرهم بقدراتهم العلمية والفكرية (باستثناء بعض الحالات)، والأمر وإن دلّ على الخصوصية العجيبة للدماغ، فإنّه يشير كذلك إلى استقلال الروح حيث تبقى قوية مفعمة بالعلم والقدرة رغم تآكل كافة أجهزة البدن وانحطاط قدرتها وطاقتها. غالباً ما نسمع أنّ الشخص الفلانى قد أصيب للأسف بسكتة دماغية، بحيث يفقد حياته إن كانت سكتة تامة، أمّا إن كانت جزئية فإنّما تتوقف بعض أعضائه عن الحركة، حيث يشل أحياناً نصف الجسم، وأحياناً أخرى اللسان وبعض أجزاء الوجه، وأخيراً العين والاذن التى تجعل الإنسان فى حالة يرثى لها، أحد الأصدقاء، كان يقول: كل شىء كامله حسن، إلّاالسكتة فناقصها أفضل من كاملها! سر الوجود، ص: ۱۱۵ قلت: يبدو أنّ هذه أيضاً

كاملها حسن، فهى تحسم حالـة الإنسان، إمّا الحياة فى هـذه الدنيا وإمّا الموت فى تلك الدنيا، لا أن تتركه موجوداً مشـلولًا معلقاً! طبعاً كـان مرادى أنّ السـكتة الدماغيـة كمـا يظهر من اسـمها هى التوقف المفاجىء لجميع أو بعض غرفـة السـيطرة العجيبـة. كثيراً ما تنفجر شعيرة دموية (وهى أنحف وألطف بكثير من الشعرة ومسؤولة عن تغذية الخلايا الدماغية وإثر فقدانها لقوة الارتجاع) فتقع قطرة صغيرة من الدم على قسم صـغير من الدماغ فتفسده وتشل حركته عن العمل. قد يكون هذا الزر فى منتهى الصغر والنحافة هو زر السيطرة على اللسـان فيتوقف اللسـان فوراً عن النطق، والحال لم يشـهد اللسان أى اختلال أو عارض، أو يكون مرتبطاً بالعين فتنعـدم رؤيتها دون أن تتعرض بنية العين لأىخطر وإن كان مرتبطاً بأعصاب الطرف الأيمن من الجسم فسيصاب بالشلل، وإذا عولجت القطرة الدموية وزالت وتمّ أصـلاح ذلـك الزر المتوقف عن العمـل، إسـتأنف ذلك الجهاز المرتبط بها عمله من جديـد. لقـد رأيت شـخصاً محترماً أصـيب بالسـكتة الدماغيـة حيث توقف بعض جسـمه إضافـة إلى لسانه عن العمل، فكان أحياناً يجهد نفسه كثيراً من أجل التلفظ بكلمة، فكان يتمتم ويتلعثم كالأطفال ثم يكف بغتـة عن الكلام- إلّاأنّ العجيب أنّه كان يقرأ سورة الفاتحة والسورة الأخرى فى الصـلاة بكل طلاقة وفصاحـة! فـإن قلنا لعل ذلك بسبب سر الوجود، ص: ۱۱۶ كثرة تكراره لهـذه الكلمـات، فـالواقع كانت هنالك عـدّة كلمات أخرى يكررها فى حياته أكثر من تكراره لسورة الفاتحـة والسورة الأخرى وإن قلنا رغبته الشديدة قد أثرت على جهاز النطق المشـلول فجعلته ينطق، فإن ذلك خصوصـية أخرى من الخصائص العجيبة لهذا الجهاز الذى يعمل حين الشلل، وهو مشلول فى ذات الوقت .. من يسعه التصديق بعدم وجود أى تنسيق وبرامج مسبقة للعمل فى هذه الغرفة الاسـتثنائية للسيطرة، بحيث كانت هذه الاعجوبة وليدة الصدف؟! وهنا نقول: ألا يكفى هـذا المقـدار من معرفـة الـذات والاطلاع على أوضاع هـذا المركز العجيب لكشف أول سـر من أسـرار الخليقـة، والمراد به تلـك القـدرة والعلم المطلق الـذى يـدير شؤون العـالم؟ فكيف للعقـل أن يخلق ما لا يملك. أم كيف يخلق مثل هـذه الآلة الحاسبـة العجيبـة من افتقر للحسـاب والنظـام فى عمله وكانت الصدفـة هى المميزة لأفعاله، وكيف لمن لا يحسن الحساب والقانون أن تكون جميع أعماله مبرمجة على أساس القانون والقاعدة؟! وهنا تكون معرفة النفس دليلًا وسبيلًا لمعرفة اللّه.

أغرب إرشيف عالمى

اشارة

لو أمرت مئات الأشـخاص بحفظ إرشيف معلوماتك فلا يسعها أن تقدم لك العون كما يقدمها الغطاء الشفاف الذى يغطى الدماغ سر الوجود، ص: ۱۱۹ نرد الآن، بعـد تصـفحنا لهذه المدينة الشاسـعة التى تعرف بعالم الوجود، المنزل الأول (منزل وجودنا) حيث انهمكنا بدراسـة أول غرفـة وهى الغرفة المبهمة للدماغ والذى يمثل بمفرده مدينة عظيمة بل بلداً كبيراً. ركزت نظرى لأرى خطوطاً غير منتظمة تحيط بالمادة الرماديـة اللون للدماغ. آه ... كأنّ هذا الشـكل ليس غريباً على ناظرى، فقد رأيت مثلها فى مواضع أخرى نعم حين نسافر جواً بالطائرة ونصل إلى النقطـة التى تصب فيها الأنهار والشـطوط ماءَها فى البحار فإننا نشاهد هذه الخطوط ترتسم إثر ظاهرة مد البحر وجزره وانحسار وعودة ماء النهر. فهل خطوط الـدماغ هى آثار المد والجزر لبحر فكر الإنسان والتى ترتسم على صـفحته خلال القرون والعصور؟ أم هى تصـنيف دقيق من أجل المراكز الحساسة للدماغ وتحديد وظائفها؟ أم هناك خطوط مواصـلات معينة تمرّ عبرها؟ لا نعلم. كل ما نعلمه أنّ الغطاء الظريف الـذى يغطى هـذه الكتلة الرمادية كاحتمال قوى يضم أعظم أراشـيف فى هذا العالم. نعم، فالذى تفيـده الـدراسات الأخيرة للعلماء أنّ هناك مركز حافظـة (أو الأصح مفتاح الحافظة) يكمن فى هذا الغطاء الظريف وقد ارتسـمت عليه بشـكل إعجازى كافة معلوماتنا وخاطراتنا ومشاهداتنا سـر الوجود، ص: ۱۲۰ السابقـة وعلومنا، ولكن كيف وبأيّـة طريقة؟ لا أحد يعلم. ولكى نقف على مـدى الخدمـة التى يسـديها لنا هذا الغطاء السـحرى كفاه أن يضـرب يوماً واحداً عن العمل ويتحفظ عن التذكير بأيّة خاطرة. فهل يسـعك أن تتصور كيف ستصبح حياتنا آنـذاك؟ لا يبـدو التكهن بـذلك صـعباً: حالـة عجيبة من الدوار فى كل شـىء،

بالضبط کالحالة التی یعیشها الولید الجدید، فکل شیء غریب علینا وکأننا نشاهده لأول مرّة، لا یسعنا أن نتکلم ولو بکلمة واحدة، و إن أردنا التقدم خطوة واحدة إلی الأمام لفقدنا توازننا وسقطنا علی الأرض، لأننا نکون قد نسینا طریقة المشی، ولو استطعنا المشی فإننا لاـ نعرف الطریق إلی البیت ولاـ مرکز عملنا، وعلینا أن نتسکع حیاری دون هدف حتی نموت، ولاـ یقتصر الأمر علی عدم معرفتنا لأصدقائنا، بل سوف لن نعرف الأب والأم والأخ والأخت والوالد والبنت، فلا نفرق بینهم وبین سائر الناس الغرباء، وإن جعنا لا ندری ماذا نأکل، لأننا نکون قد نسینا جمیع الأطعمة وإن أتونا بطعام فإننا سنجد صعوبة بالغة فی سبیل معرفة الطریق إلی الفم، وهکذا سنکتشف أی عذاب وألم سنعیشه فی حیاتنا. قد ترون ذلک نوعاً من أنواع الوهم والخیال، لکن لیس الأمر کذلک. ففی أمراض الحافظة التی عادة ما یشل جزء منها هنالک حالة من فقدان الوعی تحدث للإنسان من قبیل «العمی الذهنی» وهو مرض روحی لا یسع المصاب به التعرف علی صورة المبصرات، فما یراه بعینه لاـ یعرفه. سر الوجود، ص: ۱۲۱ الصمم الذهنی هو نوع آخر من هذه الأمراض ینسی المصاب به إدراکاته السمعیة ولا یعرف الأصوات والکلمات والأنغام، مثلًا لا یستطیع تمییز خریر الماء من بوق السیارة! النوع الآخر من اختلالات الحافظة «نسیان اللمس» الذی لا یستطیع المریض فیه التعرف علی شکل الأشیاء عن طریق اللمس، مثلًا لا یستطیع التمییز بین العملة النقدیة المعدنیة والقلم بواسطة حاسة اللمس. فمثل هذه الأمراض العجیبة التی یشاهد بعض نماذجها الآن لدی بعض الأفراد إنّما تمثل الوضع الألیم و المأساوی الذی یعانیه أولئک الأفراد من جرّاء اختلال جهاز الحافظة. بعد أن تحدثنا عن الأسرار العجیبة لغطاء الدماغ، نتطرق الآن إلی بعض المواضیع ذات الصلة:

تصنیف الحافظة:

إننا نخطیء إذا تصورنا أن خاطراتنا علی هذا الغطاء کالکتب المصنفة و المرتبة علی رفوف المکتبة، کلا لیس الأمر کذلک، فلکل من خاطراتنا و محفوظاتنا و معلوماتنا هویة معینة و قد رتبت حسب تواریخ ظهورها، أی أن شبکات الحافظة إنما تمتلیء بالتدریج طبقاً لنظام معین. و من هنا یستطیع الإنسان أن یخمن بسهولة المدة الزمانیة سر الوجود، ص: ۱۲۲ لخاطراته الماضیة من خلال الرجوع إلی حافظته، مثلا أن الحادثة الفلانیة وقعت قبل سنة أو عشر سنوات أو عشرین سنة. و أحیانا تعرض بعض الأمراض الروحیة التی تعرقل هذه الاتصالات أو تتداخل، مثلا أسلاک رفوف الحافظة، فیواجه الإنسان وضعاً ألیماً مأساویاً. فیتصور الحاضر ماضیاً، فیری أن ما یشاهده الآن من حوادث قدرآها فی الماضی، إلّاأنّه لا یدری أین ومتی؟! ... أو بالعکس یتوهم الماضی فی الحاضر، فیظن أن الآن فترة طفولته، ولذلک فهو یتصرف بطفولیة فیلعب ویمرح ویُبدی کافة ردود الأفعال التی یبدیها الأطفال. فهذان النوعان المرضیان یدلان علی مدی الوضع المضطرب العجیب الذی یعیشه الإنسان إذا اختل التنظیم الزمانی لشبکات الحافظة.

سرعة الاستذکار:

یری العلماء أنّ الإنسان لا یلزمه من الوقت أکثر من واحد بالالف من الثانیة لاستذکار خاطرة، ولک أن تتصور مدی عظمة هذا العمل بأن تحصل خلال المدّة المذکورة علی خاطرة من بین ملایین الخاطرات والحوادث المرتبة فی الحافظة. إفرض أن أحد أصدقائنا الأعزاء سافر قبل عشر سنوات، ففی هذه العشر سنوات تقع عدة حوادث وخاطرات وما إلی ذلک فی سر الوجود، ص: ۱۲۳ الذهن والحافظة، فاذا دق الباب ووقعت عیننا علی ذلک الفرد عرفناه سریعاً، فهل تعرف ماذا تعنی مفردة «عرفناه»؟ یعنی إننا طبقنا فی لحظة خاطفة صورته مع ملایین الصور التی نحتفظ بها منذ عشر سنوات فی الذهن فصدقنا أنّه فلان. فلو کانت هذه الخاطرات و المعلومات المودعة فی حافظة الإنسان علی هیئة ملفات بأرقام معینة محفوظة فی إرشیف ضخم وتولی مئات الأفراد تنظیمها، فهل لهم ذات القدرة المذکورة علی الإتیان بملف واحد وبتلک السرعة؟! هذه هی القدرة العجیبة لحافظتنا!

إعجاز الحافظة!

اشارة

یمکن من هـذا الطریق مساعدة الحافظة و تقویتها سر الوجود، ص: ۱۲۷ لابدّ إنّکم تتذکرون إننا بلغنا غرفة ذات أسرار عظیمة وألغاز غامضـة ووقفنا علی مـدی تعقیـدها ونظامها بحیث عـدّت من أعقـد الأجهزة الموجودة فی العالم، فقـد کانت تلک الغرفة بمثابة مرکز القیادة للبـدن، حاولنا أن نرفع الغطاء الکائن علی الـدماغ فقیل لنا حسبکم! ... ما الخبر؟ قالوا: إنّ ذلک لیس غطاءً بسیطاً اعتیادیاً، فهو مرکز جمیع الخاطرات وإرشیف کافـةّ الحوادث التی صادفتنا طیلـة عمرنا، نعم هنا مرکز الحافظة وإذا اختل جانب منه أدّی ذلک إلی نسیان طائفـة عظیمـة من خاطرات الماضـی. قالوا: إنّ بعض الأفراد الـذین أجریت لأدمغتهم عملیـة جراحیـة فقلع جزء منه ممّا لیس له ارتباط مباشـر بأجهزة البدن الحساسة فترتب علی ذلک نسـیانهم لخاطرات عدیدة من سـنی عمرهم، وکأنّهم نسوا تماماً الأحداث التی وقعت خلال تلـک السـنین، وأصبح الأـفراد ممن کانوا یعرفونهم غرباء. قلنا: لابـدّ أن نتوقف هنا کثیراً ونخوض أکثر فی دراسـة هـذا الغطاء الشـفاف، وهذا هو هدفنا حیث ینبغی أن نکمل هنا معرفة الذات: یالها من عملیة، فهنالک أوامر تصدر باسـتمرار من مرکز قیادة الـدماغ بإحضـار الملفات وسوابق الأفراد ومختلف الموضوعات فلا تمضـی سـر الوجود، ص: ۱۲۸ مـدّة تفوق واحـد بالألف من الثانیة لیحضر ما یشاء بسرعة البرق، حقّاً لیس هنالک جهاز مهما کانت عظمته یقوم بهذه الأعمال وبهذه السرعة.

معجزة الحافظة:

لکن قیل لنا أنّ روعة هذا الجهاز لا تقتصـر علی سـرعته وسعته، بل بفعله للمعاجز. قلنا کیف؟ ... ومن أسماه کذلک؟ قالوا: إنّ العلماء والمختصین لما ذهلوا لطبیعة عمله اصطلحوا علیه بالمعجزة «۱». عادة ما ینسی الإنسان بصورة کلیة اسم الشخص أو الموضوع، ثم یبذل جهده وسـعیه للعثور علیه، فیقلب رفوف إرشـیف الحافظة رأساً علی عقب الواحدة تلو الأخری ویبحث عن ضالته فی کل مکان. حسناً إن کان الإنسان یعلم ذلک الاسم أو ذلک الموضوع فکیف یبحث عنه؟ وإذا لم یکن یعلمه فکیف یبحث عن شیء لا یعرفه، أفیمکن أن یبحث الإنسان عن شـیء لا یعلمه؟ ومن هو هذا الإنسان؟ هنا نقول بشأن النسیان: إنّ الإنسان یبحث عن ضالة لا یعلمها، وفجأة ومن خلال جمع القرائن المختلفـة یتّجه إلی رف لیجـد ضـالّته سـر الوجود، ص: ۱۲۹ هناک! ویصـطلح العلماء علی هـذه القضـیة بمعجزة الحافظـة، والحق أنّ الأمر کـذلک، فهناک نقطـة حساسـة تکمن فی حل هذا التضاد المذهل وهی: إنّ الإنسان فی مثل هذه الموارد لا یبحث عن ذلـک الاـسم أو الموضوع الـذی لاـ یعلمه، بل یبحث من أجل الحصول علیه فی مجموعـة الحوادث الکائنـة فی ذهنه برفقة الاـسم المطلوب، مثلًا یعلم أنّه تعرف علی هـذا الصـدیق لأـول مرّة فی الیوم الفلاـنی والمکـان الفلاـنی، فیطلب فوراً ملف ذلک الیوم والمکان من الحافظة وینهمک فی تصـفحه، ویلتفت فجأة إلی اسم معین علی هامش ذلک الملف المذکور، وهذا الاسم بلا شک هو لـذلک الصدیق، فیشـعر بحالة من الفرح والسـرور حین العثور علی ضالّته بحیث ینسـی کل التعب والإرهاق الذی عاناه من أجل الظفر ببغیته.

التداعی؛ القضیة العجیبة الأخری

قالوا: من الخصائص الطریفة الاخری لهذا الارشیف العظیم عدم ترتیبه وحفظه للخواطر بصورة مستقلة ومنفصلة عن بعضها، وهذا عمل عبثی ومجهـد، بل یحفظ الخواطر علی هیئـة مجموعات کما تقیم بین هذه المجموعات حلقات اتصال وسلسـلة من أسـلاک الارتباط؛ العمل الذی لا یتمّ فی أی إرشـیف ومسـتودع للمعلومات. والفائدة المترتبة علی هذا العمل هی السرعة والسعة الفائقة سر الوجود، ص: ۱۳۰ للاسـتذکار والحیلولـة دون النسـیان؛ لأنّ مسائل مجموعـة کحلقات السلسـلة المتصـلة مع بعضـها ویکفی أن تحرک حلقة واحدة

لتتحرک جمیع الحلقات وتتمّ عملیة الاستذکار. یمکن أن ینسی الإنسان بعضی مشخصات فرد أو تفاصیل حادثة، ولو کانت کل واحدة منهما قد حفظت بصورة منفصلة لما تیسرت عملیة الاستذکار آنذاک، أمّا الحفظ الجماعی فإنّه یؤدّی إلی کون الظفر بالضالة متوفراً علی الدوام، حیث یندر نسیان کافة أجزاء المجموعة وهذا هو الأمر الذی یصطلحون علیه بتداعی المعانی. ومن هنا أیضا یستنبط طریق یؤدی إلی تقویة الحافظة، وهو أننا حین نحفظ شیئاً نسعی لایجاد تداعی أکبر بین ذلک المطلب والحوادث الزمانیة والمکانیة الأخری أی إننا نبعث بذلک الموضوع برفقة مجموعة من الحوادث التی رافقته إلی الحافظة، لیحصل الاستذکار بکل سهولة بمجرّد تحریک إحدی حلقات هذه الحوادث، مثلًا حین حفظ اسم المنطقة الفلانیة نلتفت إلی أنّ حرفها الأول شبیه اسم رفیقنا، وشکل کلمتها یرادف اسم المؤسسة الفلانیة أو الشارع الفلانی، فهذه الأمور تسهم کثیراً فی عملیة الاستذکار أو تقویة الحافظة (علیک بالتمعن).

نعمة النسیان:

قالوا لنا: لعلکم تتعجبون وحقّکم أن تتعجبوا فی أنّ النسیان من سر الوجود، ص: ۱۳۱ نعم اللّه الکبری طبعاً لا نقصد نسیان الشدائد والمصائب وما إلی ذلک، والمراد النسیان التدریجی للقدر الأکبر من خاطرات الماضی لفترة الطفولة أو الفترات التی تعقبها. ففی الحقیقة یقوم إرشیف الحافظة بعمل غایة فی الأهمیّة بهذا المجال، فرفوف الحافظة وإن کانت کثیرة جدّاً، إلّاأنّها محدودة بالتالی، فإذا امتلأت یوماً جمیعها، وأرادت أیّة حادثة جدیدة أن تشق طریقها إلی هذه الرفوف قیل لها: لامجال لک ... وهکذا سیعجز الإنسان عن حفظ حتی کلمة واحدة أو اسم جدید ویاله من مصیر مؤلم؟ أمّا هذا الجهاز فإنّه یقوم بصورة تلقائیة حین ورود أیّة خاطرات ومسائل جدیدة بطرح عدد من الملفات السابقة المهملة التی لا طائل من ورائها فیمهد الرفوف لاستقبال الموضوعات الجدیدة والطریف فی الأمر أنّه علی درجة من الذکاء بحیث لن یشمل الطرح المذکور أیّة مسائل وملفات لها دور فی حیاة الإنسان، ویقتصر ذلک علی الأمور التی لا تستحق تلک الأهمیّة وینبغی نسیانها. فقلنا: یا له من جهاز عجیب ومبرمج لم نکن لحد الآن نعرف دوره، فودعناه وخرجنا من تلک الغرفة ذات الأسرار، والحال لم نطالع لحدّ الآن سوی غشاءً واحداً من أغشیته!! ولا ندری کم سنذهل وندهش وکم سیطول الأمر لو فکرنا فی دراسة کل جوانب «الدماغ» بالکیفیة السابقة، ثم نخرج من هذه الغرفة ونتجول فی سائر غرف ودور وأحیاء ومدن وبلدان وجودنا؟! سر الوجود، ص: ۱۳۲ فهل یمکن القول أنّ هذا البناء الضخم کان صدفة ولیس له مهندس؟ لا یمکن إصدار مثل هذا الحکم بشأن طابوقة فضلًا عن غرفة أو دار أو مدینة، أضف إلی ذلک فإنّ بلد وجودنا عبارة عن ذرة من الغبار معلقة فی أطراف قصر الوجود. وهنا نعرف کیف أنّ معرفة الذات سبیل لمعرفة اللّه. وهنا أیضاً نکتشف أنّ وجود اللّه لیس لغزاً ولا حتی خفاء، بل لعله نسی لشدّة وضوحه.

هل من بدایة و نهایة للعالم!

اشارة

أعماق ظلام الوجود وظهرتخطیط جدید، إلا أنّ عامل ظهور هذا الومیض لایمکن أن یکون من داخل الدنیا المظلمة

سرّ آخر:

تفید کافة المشاهدات الموجودة أنّ العالم یسیر نحو التآکل، لأننا نعلم أنّ العالم یتألف من ذرات، والذرات بأجمعها فی حالة تجزئة. وخلافاً لما یظنّه البعض فلا تشتمل الأجسام الرادیوکتیفیة لوحدها علی ذرات متغیرة فی حالة تجزئة و زوال، بل سائر الذرات هی

الأخرى تنطلق إلى ذات الغايـة. أمّا الفارق بينهما هو أنّ ذرات الأجسام الراديوكتيفية إنّما تجتاز هذا الطريق بسـرعة، بينما تقطعه ذرات سائر الأجسام ببطىء، وبالطبع فإنّ مـدى التجزئة ضـئيل جدّاً فى الأجسام الصـغيرة كالحصـى مثلًا، أمّا فى الجسم الكبير كالشـمس التى تكبر كرتنا الأرضـية بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، فقد تصل فى اليوم والليلة إلى ٣٠٠ ألف مليون طن. ومن شأن هـذا الأمر أن يوضح لنا إلى حـد موضوعين مهمّين بخصوص بدايـة هـذا العالم ونهايته. ١- إنّ لهـذا العالم المادى على وجه الحتم بدايـة، وخلافاً لما يعتقـده البعض فإنّ طول عمره لا يمتـد إلى اللا نهايـة، لأنّه لو مرّ على عمره مالانهاية من السـنوات، كان لابدّ أن تتجزأ كافة ذراته وتتبدل إلى طاقة قبل مالا نهاية من السـنوات، إلى جانب كون تجزؤ كافة ذرات العالم مهما كانت بطيئة و تتطلب زماناً طويلًا فلا تبلغ اللانهاية، سر الوجود، ص: ١٣٦ ومن هنـا كان ينبغى ألا يكون عالمنا المعاصـر سوى كتلـة من الطاقـة، هـذا من جهـة. ومن جهـة أخرى فإنّ طاقات العالم إنّما تتجه دائماً نحو الرتابـة والتقسـيم المتوازن والمتساوى، يعنى بالضـبط كقطعة الحديد الذائبة التى تفقد حرارتها بالتدريج فى الفضاء الطليق حتى تصـبح حرارتها واحـدة مع حرارة الاجسام من أطرافها، وهـذا ما عليه حال طاقات الـدنيا. طبعاً قطعة الحديد المذابة مادامت لم تبلغ هـذه الحالـة فهى مصـدر بعث للحرارة (الأشـعة تحت الحمراء)، إلّاأنّه ما أن تتساوى درجـة حرارتها مع الأطراف حتى تخفت سائر الأمواج والأشـعة المـذكورة، أضف إلى ذلك حين يكون الحديـد مـذاباً فإنّ الهواء الملامس له يكون دائم الحركـة، أى يصبح الهواء حـاراً ويرتفع إلى الأعلى فيحل محله الهواء البارد، وهكـذا يكون هنالك نسيم معتـدل دائم فى تلك المنطقـة، أمّا حين تخفت الحرارة (أو الأصـح: تتساوى درجة حرارة الحديد مع درجة حرارة الأطراف) فإنّ ذلك النسـيم يسـكن أيضاً. مثال آخر: حركة الأنهار و دوّى الشـلّالات وحركـة أمواج البحار وآلاف الظواهر الجميلـة المرتبطـة بـذلك فى كافـة أجزاء الكرة الأرضـية، كلها وليـدة اختلاف سـطوحها، ولو تساوت المياه يوماً فى سطح واحد من الكرة الأرضية، أى لو توزعت بصورة رتيبة فى الكرة الأرضية لإنقطعت آنذاك أصوات الشلّالات وخرير المياه ولسادت جميع الأنهار حالة من الصمت الرهيب. سر الوجود، ص: ١٣٧ وهذا هو وضع الطاقات الموجـودة فى عـالم الوجود، فهى تتّجه نحو الرتابـة والسـكوت، وإذا قسـمت بصورة متساويـة فسوف لن يكون هنـاك سوى الصـمت المطلق. وعليه لو مضى مالا نهاية من عمر العالم لوجب أن تحصل هذه الحالة إلى الان، وهذا هو الشيء الذى عبر عنه فى المادة الثانية من الترموديناميك باسم الانتروبى أو الكهولة. فالمادة المذكورة تفيدنا حتمية البداية للعالم المادى، قد لا نسـتطيع بسـبب البعد الزمانى بيان تاريـخ ظهوره والسـنوات التى مرّت عليه على وجه الدقّة، إلّاأنّ المسـلم به وجود مثل هذا الشـىء. ٢- كما تعلمنا هـذه المادة أن للعالم المادى نهايـة ولا يمكنه أن يسـتمر إلى الأبـد، لأنّ التجزئـة التدريجية للذرات ورتابة الطاقة سـيكون ختامها تبدل جميع الذرات طاقة والطاقة الفعالة إلى طاقة خاملة وصامتة وساكنة. فالعالم كالشخص الذى يفقد طاقته تدريجياً إثر مرور الزمان وبالتالى سيأتى اليوم الذى ينطفىء فيه سـراج عمره- نعم هنالك اليوم الذى يشهد ذبوله وخموله وفقدان جميع قواه (عليك بالدقّة). لم يبق كلام سوى عن العصور المكررة والومضـة الأولى وقيامـة العالم، فقـد يكون هـذا العالم قد شـرع من نقطة مئات أو آلاف أو ملايين المرات، و بعد أن اجتاز عصوراً مديدة من حياته وتلاشـى سـر الوجود، ص: ١٣٨ وتجزأت كل الذرات اسـتجدت حياته واتخذ لنفسه شـكلًا حديثاً، وقد حدث انفجار عظيم فى قلب هذا العالم فى تلك الحالة الرتيبة والسكون المحض، ثم دبت الحياة من جديد فى الطاقات فتراكمت شيئاً فشـيئاً وشـكلت مواد جديدة وابتدأت حركة حول نفسها فظهرت المجرّات والكواكب وسائر الكرات كالكرة الأرضية والكائنات الحية و ... وكذلك بعد أن يسير عالمنا المعاصر إلى الافول تندثر كواكبه وتهفت طاقاته ويترتب ثانية من جديد، وعليه وإن كان لكل عصر من عصور عالم المادة بداية ونهاية، بينما تتخذ بالمجموع لنفسـها صبغة أزلية وأبدية، إلّاأنّ هناك حقيقة كامنة لا يمكن إنكارها وهى فى البداية يكون كل شـىء رتيب وعابث و هكذا فى النهاية ولابدّ من تسـليط قوة عظيمة من الخارج على عالم الطبيعة وتلقى الومضـة الاولى ومضـة الوجود والحيـاة بسـكونها وصـمتها على العالم وإلّا كيف للوسط الهادىء والفاقـد لأىنشاط أن يكون مصـدراً للحركة والفعاليـة، نسـتنتج ممّا سـبق أنّ العالم فى ظهوره الأول يتطلب قـدرة ما وراء الطبيعـة، كما سـيحتاج بالتأكيـد إلى مثال هـذه القدرة فى المسـتقبل بعـد الأفول، ومن هنا يحل لـدينا لغز آخر من ألغاز الوجود، يمكن تلخصـيه فى العبارات التالية: * لعالم المادة بداية وتأريخ

للظهور. * لعالم المادة نهایة وتأریخ للأفول. * یمکن أن تکون هذه البدایة والنهایة تکررت عدّة مرات. سر الوجود، ص: ۱۳۹ * یحتاج العالم فی بدایة إلی عامل ماوراء الطبیعة. * یحتاج العالم فی مستقبله بعد الأفول المطلق إلی العامل المذکور. * و علیه فلا مفهوم لأزلیة العالم الراهن وأبدیته. ویمکن لهذه الحقائق أن تجیب علی عدّة أسئلة (علیک بالدقّة).

قضیة المصیر

اشارة

التفکیر بشأن المصیریهز الإنسان سر الوجود، ص: ۱۴۳ یقال: لکل فرد مصیراً مکتوب علیه حین ولادته من بطن أمّه، وهذا المصیر کظل الشبح یطارده فی کل مکان من حیاته ولا ینفصل عنه. وهذا المصیر أرسخ ثباتاً من لون بشرة الإنسان، وهذا اللون هو روح الانسان ونفسه! فالکل یعیش تحت ظل ثقل مصیر الحیاة من صغیر وکبیر وسلطان ومُستجدی وعبد وحرّ وغنی وفقیر ویبدو أنّ لعبة المصیر هی التی ترفع بعض الأفراد الحمقی إلی القمة وتدفن النوابغ تحت التراب. وکذلک لعبة المصیر هی التی تهرم مجنون فی غم عشقه للیلی وتقوده إلی الموت بینما تسبغ الحلاوة علی فلان قبیلة وفلان عصبة! وکذلک لعبة المصیر هی التی تودع بعض الأبریاء السجن أو تحملهم إلی أعواد المشانق بینما تبلغ بالمجرمین والآثمین منتهی الرفعة والعزة. ویبدو التفکیر مرعباً بشأن هذا الموضوع خشیة أن یکون مصیرنا من المصائر المشؤومة والمخیفة، فهذه القضیة تهز الإنسان من أعماقه. الویل لنا إن کنّا ولدنا بمصیر مشؤوم من بطون أمهاتنا ... سر الوجود، ص: ۱۴۴ ألا أنّ المسلم به هو أن تصویر المصیر بهذا الشکل وأنّ کل تفاصیل حیاتنا قد دونت فی متن کتاب الوجود وقد اتّخذ حالة من الثبات لا یبدو أکثر من وهم وخرافة، تفید أنّ هذه الفکرة تعود إلی عصور الأساطیر والخرافات. والحق لیس هنالک من دلیل یؤید الفکرة المذکورة، بل بالعکس قامت عدّة أدلة علی نفی الفکرة السابقة. أمّا الأسباب التی کرست تلک الخرافة وجعلتها ذات صبغة عالمیة فیمکن إیجازها فی ما یلی: ۱- إنّ مسألة المصیر وسیلة مؤثرة لأولئک الذین یریدون إستعباد البشریة واستعمارها، إلی جانب تحطیم مقاومتها والحیلولة دون قیامها وثورتها. فللفرد مصیر محتوم ومعین لا یمکن تغییره، وهکذا مصیر الأمّة. فیوحی ذلک إلی الأمّة بأنّ مصیرها منذ الأزل قد تبلور بالفقر والاستعمار وما علیها إلّاالاستسلام لهذا المصیر. کما أنّ الغرب وبهدف استغلال الثروات البشریة ونهبه لخیرات الشعوب الفقیرة کالشعوب الأفریقیة التی هی أحوج ما تکون إلی هذه الخیرات، ویدع «الشرق» بین الموت والحیاة من فرط الحاجة والتخلف، یسعی لاسباغ المشروعیة علی هذه العملیة المقیتة تحت عنوان أنّ ذلک مقدّر منذ الأزل، وبالتالی فإنّ الوقوف بوجه هذه التقدیرات بمثابة الوقوف بوجه القوانین الطبیعیة المسلمة والذی لا یقود سوی إلی الهزیمة والفشل ...! سر الوجود، ص: ۱۴۵ والعجیب أنّ المارکسیین وبصورة عامة المادیین، الذین یعتبرون أنفسهم من رواد الحرکات والنهضات التحرریة إنّما یعتقدون بحالة من الجبریة التاریخیة أو الفلسفیة والتی قد لا تختلف فی أکثر مواردها مع فرضیة المصیر المذکورة، وهنا یسعی الذین یقرون النزعة المادیة لتفویض الإنسان مصیره، ویرون الماهیة (التی یعبرون عنها بمجموعة القیم الفردیة والاجتماعیة للإنسان) تابعة له أیضاً. علی أیّة حال یبدو أنّ فکرة الجبر والتقدیر التی تبناها خلفاء بنی امیة وبنی العباس وسائر طغاة التاریخ البشری إنّما هی ولیدة مضمونها الاستعماری والتخدیری، فقد برر أحد الامراء هجوم المغول علی منطقة واحتلالها بعد أن یأس من صمود الناس ومقاومتهم بأنّ ذلک کان نوعاً من العذاب الإلهی والمصیر الحتمی! فما أحری الأمّة بالاستسلام لذلک القدر. وما دعوة الأنبیاء حملة أعلام الحریة الإنسانیة، وسعیهم الحثیث لتحریر إرادة الإنسان وتحکمه فی مصیره إلّادلالة أخری علی تجذر الفکرة الخاطئة المذکورة. ۲- الموضوع الآخر الذی أنعش تلک الخرافة هو التوجیه الساذج للفشل والهزیمة حیث یمکن تقلید المصیر کافة الذنوب والأخطاء وإبعاد الذات عن مسؤولیتها، ومن هنا قلما تری من ینسب الانتصارات الکبری والنجاحات إلی المصیر، کأن ینسب إلی هذا المصیر مثلًا نجاحه فی الامتحان الوزاری أو نیل المنصب السیاسی الفلانی أو کسب التجارة الفلانیة، حیث یعزی

مثل هذه الأمور إلى سر الوجود، ص: ۱۴۶ كفاءته وذكائه وقدرته وقابليته الذاتية! أمّا إن أفلس و سقط من موقعه سارع إلى تحميل المصير مسؤولية ذلك فى محاولة للتغطية على أخطائه! «مسكين هو المصير» إنّما يتابع الإنسان فى الشقاء دائماً ويحمل عنه خطاياه- بينما ليس له من دور فى سعادته- والحق أنّ هذا يمثل نوعاً من إبتعاد الإنسان عن الواقع كما يظهر أنانيته وإعجابه بنفسه.

على سبيل المثال ...:

يتعرف شاب وشابة على بعضهما فى أحد الأماكن العامة كالسينما إثر مشاهدتهما لفلم خليع فتلتهب لذلك عواطفهما ويتزايد عشقهما فيقترح أحدهما على الآخر قضية الزواج بهذا الشكل العجول. ويسعى الطرفان هنا لإخفاء هذا الأمر والحذر من اطلاع الآخرين بدلًامن استشارة الوالدين وبعض الأصدقاء الناصحين وممن لهم خبرة، وهكذا يرغب كل منهما بالآخر دون أدنى دراسة وتحقيق، تتمّ فترة الخطوبة فى ظل سعى كل طرف لستر عيوبه البدنية والأخلاقية عن الآخر والاقتصار على إظهار الكمالات، يحصل الزواج المبارك بينهما وينقضى شهر العسل فى حالة من تخدير الأعصاب وعدم الالتفات إلى أى أمر والاقتصار على اللذة. ثم يتدرجان فى مواجهتهما للحياة ومشاكلها فتبدأ عيونهما وآذانهما بالتفتح، ليرى كل واحد منها كل يوم أحد العيوب فى الأخر، سر الوجود، ص: ۱۴۷ فلا تمضى مدّة طويلة حتى تبيّن عيوب كل منهما للآخر، وهنا يتأوه الزوج ويقول: ترى ماذا أفعل لقد كانت قسمتى كذلك؟ المصير هو الذى قادنى إلى هذه الزوجة وإلّا أين أنا من هذه؟ إنّها يد التقدير وأنا لأصغر من أن احاول تغييرها والهروب منها. الزوجة هى الاخرى تتأوه من حظها وطالعها المشؤوم الذى أتاها بمثل ذلك الزوج ولقد صدقوا حين قالوا إنّ جبين البعض أسود، ودليل ذلك أنّه أتى الكثيرون ومنهم لخطبتى أفراد شرفاء ونجباء ومن عوائل أصيلة ذات حسب ونسب، إلّاأنّى رفضتهم جميعاً، حظى ومصيرى هو الذى جعلنى أقترن بهذا الشقى، والحال أنّ كل ذلك البؤس والشقاء كان الوليد الطبيعى لحماقتهم وباختيارهما حتى رأيا بأم أعينهما النهاية الفاشلة لذلك العشق الزائف. لقد أقدما على عملهم دون أدنى تريث أو دراسة أو استشارة، بل جهداً على إخفاء الأمر، وما أكثر هذه الحالات والنماذج فى القضايا السياسية والتجارية والزواج وما شابه ذلك. ۳- العامل النفسى الآخر الذى أكّد خرافة المصير هو عدم اطلاع الناس على أسباب الظواهر الاجتماعية، فهم يعتمدون خرافة المصير فى تبريرهم للحوادث دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث والمطالعة والفكر. فيزعمون مثلًا لو هجمت جيوش المغول وحطمت الشرق والغرب واستسلمت الأمّة لُاولئك البرابرة الوحوش فليس ذلك إلّا نوع من التقدير والمصير الذى كتب على هذه الامّة، فهم لا يفكرون أبداً ما هى نقاط الضعف فى هذه الأمّة. سر الوجود، ص: ۱۴۸ إلى جانب ذلك فإنّ الجيش المغولى الجرار لم يظهر فجأة وقد أخذ يستعد منذ زمن طويل، فلو كان زعماء الامّـة وقادة الجيش ممن يتصوف بالحنكة والذكاء لتكهنوا بما ستؤول إليه الأحداث ولكان عليهم البحث عن حلول سلمية أو التضامن مع سائر البلدان من أجل درء الخطر، إنّ تألق المسلمين فى أسبانيا ولفتهم كافة أنظار العالم إليهم فى بداية الأمر ومن ثم سقوطهم واندحارهم لم يكن ذلك بسبب التقدير والمصير والحظ والطالع وانتقال القمر للعقرب والشمس إلى برج السرطان والجوزاء والسنبلة، بل كان معلولًا للاهواء والخلود إلى الراحة وعدم كفاءة القادة وغفلة المسلمين. ۴- التفكير المادى كما ذكرنا آنفا يتبنى قضية المصير الاجبارى، لأنّ الاقرار بجبرية قانون العلة والمعلول حسب تعليماتهم فإنّ مفهوم ذلك أنّ البنية الخاصة الجسمية والروحية للإنسان إلى جانب الوسط والتربية والتعليم إنّما ترسم له مصيراً معيناً، حيث القانون المذكور وعلى غرار قانون الجاذبية وسائر القوانين الطبيعية يأبى التخلف، وليس هنالك من دخل للإرادة والاختيار، بل الإرادة نتيجة جبرية لعوامل باطنية لكل شخص ومن إفرازات قانون العلة والمعلول. وقفنا لحد الآن على مختلف الأسباب التى دعت إلى ظهور قضية المصير، ونريد أن نرى هل هنالك من دليل على المعنى المذكور للمصير؟ سر الوجود، ص: ۱۴۹ لابدّ من القول فى الاجابة عن هذا السؤال: كلا، بل هذه من ألاعيب الاستعمار، أو أعمالنا وأفعالنا، أو كسلنا و عدم سعينا لتقصى علل الظواهر، أو الافكار المنحرفة للماديين وما إلى ذلك، والحقيقة أنّه لابدّ من اعتبار المصير (بهذا المعنى الخاطىء) فى عداد أساطير الغيلان والعفاريت وحكايات الوهم والخرافات، وأفضل دليل على مثل هذا المصير هو عالم

الوعى واللاوعى لكل إنسان، لأنّ كافة أفراد الجنس البشرى دون استثناء إنّما يسعون لتحسين حياتهم ومعيشتهم، وهذا القانون العام للحياة هو الذى دفع الإنسان أن يبذل قصارى جهده منذ ظهوره على الأرض لتحسين معيشته فى حركة الحياة ولم يحد عن ذلك قط إلّافى موارد خاصة. حسناً، لو كان المصير المحتوم حقيقة لما وجب على الإنسان أن يسعى ويجهد نفسه ولوقف مكتوف الأيدى منتظراً ما قدر له، فالمريض لا يراجع الطبيب ويستعمل العلاج لاستعادة عافيته. ويمتنع أبطال الرياضة عن مزاولة التمارين للفوز فى المسابقات. والطلبة الجامعيون لا يستذكرون دروسهم من أجل النجاح فى الامتحان. وبالتالى لاينبغى للعمال والتجار والعلماء أن يكلّفوا أنفسهم عناء التعب من أجل بلوغ أهدافهم، فهناك مصير لا مفر منه مفروض على الإنسان. فمثل هذا المعنى يجعل الضمير البشرى يرفضه بشكل قاطع، بل لا يقرّ به حتى اولئك الأفراد الذين يبررون فشلهم من خلال المصير. سر الوجود، ص: ۱۵۰ وناهيك عن كل ما سبق فلو قبلنا المصير بهذا المعنى لم يعد لنا الحق فى مؤاخذة أى فرد- حتى الجناة والقتلة- على أعماله، فهو مضطر لما ارتكب ولم يكن أمامه من سبيل إلى الهروب. كما لابدّ من إلغاء أعمدة النقد فى الصحف والمجلات التى تتبع أعمال الأفراد والمجتمع، وذلك إنّها محاولة يائسة للوقوف بوجه المصير، وهل من جدوى فى ذلك؟ كما لابدّ أن تخمد شعلة النضال من أجل الحرية والاستقلال والخلاص من العبودية والاستغلال. طبعاً يرفض المصير بهذا المعنى جميع الأفراد الذين ينشطون فى أمر التربية والتعليم، وإلّا لما بذلوا جهودهم عبثاً، وظيفة الأنبياء وتعاليمهم ومحور دعواتهم هى الأخرى لا تتناسب أبداً والمعنى المذكور للمصير، ومن الطبيعى ألا يعود هنالك افتخار لما يحصل عليه الأفراد من جوائز وأوسمة وألواح تقدير، فليس لهم أى دور فى تحقيقها، كما تصبح المحاكم وأحكامها وعقوباتها من قبيل الأمور العبثية الحمقى. وبغض النظر عمّا سبق فإنّ من يؤمن باللّه لا يسعه قبول مثل هذا المصير الذى يمثل قمة الظلم والجور، فهل يقبل عاقل له حظ من المنطق و العدل أن يجبر أحداً آخر عن عن طريق المصير لأن يقوم بعمل ثم يحمله مسؤولية ذلك العمل والحال لو كانت هناك من مسؤولية لوجب تحميلها إيّاه، لا ذلك المجبر الذى لا خيار له! ومن لا يؤمن باللّه فهو يدرك على الأقل الفارق بين الإنسان والحجر الذى سر الوجود، ص: ۱۵۱ يسقط من الأعلى إلى الأسفل أو ورقة الشجرة التى تحركها الرياح وذلك لأنّه: إننا مهما أنكرنا عامل الاختيار فلا يسعنا إنكار الفارق الواضح بين الكائنات الحية وعديمة الحياة، حيث يمتاز هذان العالمان بهذا الأمر، طبعاً لا نقول ليس بينهما قواسم مشتركة، لكن هناك وجه للإمتياز ظاهر بينهما حيث لأحدهما قوّة خفية ومجهولة تعرف بالحياة ومن آثار التغذية والنمو وإنجاب المثل، بينما يفقدها الآخر، كما أنّ للكائنات الحية حس وحركة تتصف بها الحيوانات أيضا بينما تفتقر إليها النباتات. وكذلك الإمتياز الواضح الذى نشاهده بين الإنسان والحيوانات أنّه يمتلك الفكر والإرادة والعزم وتهذيب النفس والمطالعة والإبداع وتأمل الماضى والحاضر والمستقبل والسير نحو السمو والتكامل، بينما تنعدم كل هذه المفردات لدى الحيوانات، ومن هنا أودع الإنسان تقرير مصيره، وهو وحده الذى يتحكم بهذا المصير فله أن يجعله مضيئاً شامخاً أو وضعياً مظلماً! ومن هنا أيضا يراه الجميع مسؤولًا عن أعماله، وليس للحيوانات والنباتات ذلك. وعلى هذا الضوء فإنّ قبول قضية المصير بالمعنى المذكور بشأن الإنسان لا ينطوى على مفهوم سوى التنكر لكل هذه الفوارق والإمتيازات للإنسان على سائر الحيوانات والنباتات والكائنات غير الحية، وهو الأمر الذى لا يتفق وأى من الاصول الإنسانية، وبناءً على ما تقدم فإنّ كافة الأدلة تشير إلى أنّ مصير كل إنسان قد وكّل به.

فلسفة الخلقة

اشارة

لماذا جئنا؟ و ماذا سنصبح أخيراً؟ و ما حاصل مجيئنا و ذهابنا؟ سر الوجود، ص: ۱۵۵ قليل من الأفراد من لا يطرح هذا السؤال: لماذا جئنا؟ ماذا ينقص الغنى الحكيم حتى خلقنا؟! ... لولم نخلق فهل ستنطبق السماء على الأرض؟ أم تتداخل المجرّات؟ أتنتهى الكواكب

والسيارات؟! ... يبدو أنّه لا يتغير أى شيء، أو ليست أغلب السيارات غير مأهولة؟ فما مشكلتها من جراء ذلك؟ حقّاً ماذا كان سيحصل لو لم نكن؟ وإذا كان مراد اللّه سبحانه قضاء حاجة فى نفسه، كأن نعبده ونثنى عليه ونتواضع لعظمته، فإنّ هذا الأمر لا ينسجم وذاته الغنية المطلقة. هل من أثر للمدح أو الذم على الشمس من قبل بعوضة فى زاوية سحيقة من زوايا كرات المنظومة الشمسية ... قطعاً لا، وممّا لا شك فيه أنّ كفرنا وإيماننا لأصغر من ذلك تجاه ذلك الوجود اللامتناهى، فالشمس ذرّة غبار تائهة فى سماء عظمته! وإذا لم يكن ذلك هو الهدف من خلقنا فما هو الهدف إذن؟ ليتنا بقينا فى مستنقع العدم ولم نظهر للوجود .. فخلقنا لم يكن منذ الأزل سوى رقعة شاذة! هناك طائفة أراحت نفسها كلياً من هذا السؤال فاعتقدت بعبثية الخلق وعدم انطوائه على أى هدف وغاية! إنّ أنصار عقيدة عبثية الخلق من الماديين وإن نالوا هدوءاً كاذباً سر الوجود، ص: ۱۵۶ لأنّهم لم يروا لأنفسهم أيّة وظيفة ومسؤولية (ولعلهم عمدوا عن علم لحمل هذه الفكرة بغية الهروب من المسؤولية والتمتع بالحرية المطلقة والاستغراق فى اللذات)، إلّاأنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ مثل هذا التفكير يحطم جميع القيم الإنسانية والاجتماعية، وليس لأيّة فلسفة أو مدرسة أو منطق أن يحدد عمل مثل هؤلاء الأفراد، فلم هذه المحدودية؟ لم لا- يفعلون ما يشاءون؟ لماذا يستجيبون للقوانين والإلزامات الأخلاقية والاجتماعية؟ إذا كانت الخلقة عبثية طائشة فليس هنالك ما يدعو إلى التحفظ والالتزام. الواقع إنّ هؤلاء الأفراد خطيرون ومرعبون.

نعم للجزئيات، لا للكليات!

أنا أعتقد أنّ أتباع فكرة عبثية الخلقة ساذجون جدّاً، حيث يعتقدون أنّ لكل عضو من أعضاء أجسامهم حتى الأظافر والأهداب وخطوط الأنامل هدفاً معيناً، ومع ذلك لا يرون من هدف وغاية لمجموع البدن وعالم الوجود!! إنّ «اللّه» أو «الطبيعة» أو «الآلهة» أو ما شئنا تسميته، إنما خلق كل طبقة من الطبقات السبع للعين والأجفان والأهداب والعضلات السداسية الشفافة التى تدير حدقة العين والأوعية الدموية وغدد الدمع ونافذة خروج الماء منها من أجل هدف واضح معين، وكذلك هناك هدف معين لخلق الأذن والأنف والقلب والأعصاب و ... وسائر سر الوجود، ص: ۱۵۷ الأعضاء، كما هناك برنامج منظم لأعمالها ووظائفها أمّا مجموع البدن فلا!! فهل بدن الإنسان و وجوده أقل من هدب عين؟ كيف لا- يكون لشيء بكليته هدف بينما هناك هدف لأجزائه؟ ياله من حكم ساذج. نفرض أنّ مهندساً بنى قصراً وقد اعتمد أدق الحسابات فى بنائه لجميع الطابوق والحجر والصالات والديكورات والأحواض والحدائق فرتبها لأهداف معينة، فهل يمكن التصديق بأنّ ذلك القصر بأجمعه قد بُنى عبثاً دون أى هدف، لعلى لا أقف على عمق الهدف لكنّى أسلم بوجوده. دعانا شخص لمنزلة ووفر لنا جميع وسائل الضيافة، وحين نتمعن نرى أنّه لم يقصّر فى شيء ورتبها جميعاً بمنتهى الذوق وكانت جزئيات الضيافة تنطوى على أهداف معينة، فهل يمكن القول أنّ أصل الدعوة كان عبثياً وأجوفاً. العجيب أنّ دعاة عبثية الخلق حين يردون أى فرع من العلوم الطبيعية يعتمدون غاية الدقّة فى تفسيرهم لمختلف الظواهر ولاسيّما فى علم الفسلجة ووظائف الأعضاء، فإنّهم لا يغضون الطرف عن معرفة وظيفة أصغر غدة أو عظم أو عصب بسيط، أمّا أنّهم حين يصلون وظائف المجموع يزعمون صراحة أنّها عبث! طبعاً هم يعلمون مدى التناقض المضحك الذى وقعوا فيه. وعليه وبالنظر لوجود الهدف فى كافة ذرات وأجزاء وجود الإنسان فلابدّ من الإذعان بوجود الهدف للكل وأنّه هدف قيّم وسامٍ، سر الوجود، ص: ۱۵۸ وبالالتفات إلى وجود الهدف فى مختلف الظواهر والكائنات من حولنا فلابدّ من قبول الهدف الرفيع الذى يختزنه العالم بأسره، وحتى وإن فرضنا عدم وقوفنا على هذا الهدف لحدّ الآن، إلّاأننا نقطع بوجوده. ومن هنا ذم القرآن أولئك الذين يرون عبثية الخلق وصوّرهم بالخلومن الإيمان ی وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِی «۱». عرفنا لحدّ الآن أنّ الفلسفة القائلة بعبثية الخلق هى نفسها فلسفة عبثية ولا تصدر من عقل ومنطق، ونسعى هنا لتشخيص الهدف المذكور، فلو تأملنا سير الحوادث لعلنا نحصل على إجابة السؤال فلا تبدو صعبة ... لماذا؟ لأننا إذا عدنا إلى حياتنا الشخصية، كنّا أطفالًا نزحف ونقفز ونقوى عضلاتنا، وكنّا نتعرف على آثار الأشياء عن طريق أنواع الألعاب، وكنّا نعدّ أنفسنا لحياة أكمل من مرحلة الطفولة. ثم نرجع أكثر إلى عالم الجنين حيث كنّا فى وسط

مظلم مخيف، وذلك لعدم امتلاكنا القدرة التي تؤهلنا للعيش في وسط حرّ، إلّاأننا تكيفنا مع ذلك الوسط حتى استعددنا للحياة المستقلة في الوسط سر الوجود، ص: ۱۵۹ المفتوح فخرجنا إلى هذا المكان. وإذا عدنا إلى الوراء أكثر فلم نكن سوى ذرات في الطبيعة الصماء وسط التراب وماء البحار وأوراق الأشجار ثم جهدنا وتقدمنا لنتحول إلى نطفة بشرية ومن ثم شهدنا مرحلة تكاملية أخرى والنتيجة هي أننا كنّا نتقدم دائماً خلال مسيرة طويلة ممتدة نحو التكامل، وبالمجموع فإنّ مجتمعنا البشرى كان يوماً يعيش في الكهوف والغابات وكانت وسائل الدفاع تجاه الحيوانات المفترسة والخطيرة تقتصر على الخشب والحجر، كان إشعال النار يمثل أعظم اختراعاتنا، وأعظم صناعاتنا هو صنع جسم مدور كالعجلة إلّاأننا لم نستقر على حالة حتى شهدنا اليوم استعمال أعقد الأنظمة الألكترونية (طبعاً من قبل عالم البشرية، لا نحن) والسفن الفضائية التي تطلق إلى الكرات السماوية، ونوقن أيضاً أننا لا نكتفي بذلك ولعله يأتي اليوم الذي يكون فيه صنع السفن السماوية والآلات الكامبيوترية الضخمة التي تبدو للناس آنذاك كما يبدو اختراع العجلة وكشف النار لنا! ومن هنا كنّا نعيش التكامل على الدوام ... لا ندعي أن لا نقص هناك في المجتمع البشرى، بل هناك الكثير، غير أنّه لا يمكن التنكر لسعة دائرة التكامل. أفلا نفهم من مجموع هذه المطالعات أنّ هدف خلق الإنسان كان التكامل في كل مكان، غاية ما هنالك ليس فقط التكامل على المستوى المادى، بل على كافة المستويات من قبيل العلم والصناعة والفلسفة والأخلاق والقيم الإنسانية وفي كل شيء. سر الوجود، ص: ۱۶۰ وبالطبع فقد زودنا بالوسائل اللازمة لهذا التكامل، وهناك القوى الخفية التي تسوقنا نحو الأمام، وفي الحقيقة إننا بدأنا من الصفر ونتّجه نحو اللانهاية وستبقى حركتنا دائماً بين الصفر واللانهاية. ولعل هذه هي الحقيقة التي أشار إليها القرآن في إطار ذكره لفلسفة خلق الإنسان متمثلة بالعبادة ى وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِى «۱» .حيث حقيقة العبودية هي التربية الكاملة للإنسان وايصاله إلى السمو والتكامل.

لماذا جئنا من العدم؟

لابدّ إنّك ستقول أنّ مسيرنا بعد الوجود سيكون تكاملياً، لكن ما الضرورة من مجيئنا للوجود، ليكون للخلق تكليف يروم سوقنا إلى الكمال؟ والخلاصة فالتكامل يرتبط بالموجودات، أمّا المعدومات فلا تحتاج إلى التكامل (عليك بالدقّة). إلّا أنّ هناك إجابة واضحة على هذا السؤال وهي: إذا أوصلنا العدد ۹ إلى ۱۰ فمن المسلم به أنّه حصل تكامل (بقدر واحد) فإن بلغنا بالصفر عدداً فهل حصل تكامل أم لا؟ قطعاً حصل تكامل لامتناهي، فإذا كان الواحد هو وحدة للتكامل فإنّ استبدال الصفر بعدد هو تكامل فائق (عليك بالدقّة أيضاً)، يعني إن كان تطور النطفة في عالم الجنين تكاملًا، فإنّ ظهور النطفة وذراتها من العدم يعد مالانهاية من التكامل.

ما فائدة التكامل؟

سمعنا مراراً على هامش التوضيحات المذكورة بشأن خلق الإنسان أنّ البعض يسأل: أننا إذا خلقنا من أجل التكامل على جميع الأصعدة المادية والمعنوية، فما فائدة هذا التكامل؟ ماذا سيكون الأمرلو لم يكن؟ للإجابة على هذا السؤال نطرح على الشباب سلسلة من الأسئلة الاختبارية فيلتفتون آخر الأمر إلى الردّ القاطع على السؤال، مثلًا نسأل: - لم تدرسون؟ - لنقبل في الإمتحانات. - لم تقبلون في الإمتحانات؟ - لنحصل على شهادة مرضية. - ما فائدة الشهادة؟ - لنمارس عملًا جيداً. - ما غايتكم من العمل الجيد؟ - ليكون لنا دخل جيد. - و ما هدفكم من الدخل الجيد؟ - لنعيش حياة وادعة مرفهة و نتمتع بالحياة. - ولم التمتع بالحياة و المعيشة المرفهة؟ هنا يتوقفون عن الإجابة و يقولون ... حسنا الحياة المرفهة ... طيب ... كل شيء معلوم بعد ذلك ... سر الوجود، ص: ۱۶۲ وهنا نلفت نظر هؤلاء إلى حقيقة كلية، وهي أنّ للأهداف أبعاداً مقامية حتى تبلغ الهدف النهائي الذي يطلب ذاته، لا شيء آخر، أي أنّ البقية مقدمة وهو ذو المقدمة ويصطلح عليه أحياناً بالهدف النهائي وغاية الغايات. وعليه فإننا نريد كل شيء من أجل تكامل الإنسان، وأمّا التكامل فهو الهدف النهائي ونطلبه لذاته.

ما استفادة الخالق من وجود المخلوق:

وممّا تقدم يثور السؤال الآتى: حسناً إنّ هدف خلقنا هو تكامل وجودنا فى ظل التعاليم والقيم الإلهيّة، ولكن ما فائدة ذلك للخالق؟ ما الذى يجنيه من هذا العمل؟ يبدو أنّ هذا السؤال ينبع من مقارنة خاطئة؛ مقارنة خالق عالم الوجود اللامتناهى من جميع الجهات بوجودنا المحدود من كل جهة. طفل يسأل والده الغنى! أريد أن أشترى اللعبة الفلانية بهذه النقود، أنت ماذا تشترى لنفسك من لعب بنقودك؟ فهو يتصور الجميع أطفالًا مثله ويعشقون الألعاب. ولما كان وجودنا فى كل تفاصيله قائماً على أساس رفع الحاجة فى كل خطوة نخطوها، فعلى أساس هذه المقارنة المضلة نتصور أنّ اللّه أيضا إذا قام بعمل إنّما يقوم به لرفع الحاجة، والحال ليس الأمر كذلك. أى أنّ أعماله ليست من قبيل أعمالنا من هذه الناحية، حيث سر الوجود، ص: ۱۶۳ نحاول فى كل عمل رفع حاجة من حاجاتنا، بينما يروم اللّه رفع حاجة الآخرين وتكاملهم، فذاته مشعة كالشمس، وشعاعها ليس لنفع بل ذاته فياضه وتحفظه عن إفاضة النور- نور الوجود ونور التربية والتكامل- إنّما هو نوع من البخل والنقص وذاته منزهة عن كل بخل ونقص. فإن كانت الشمس التى تفوق الكرة الأرضية بمليون وثلاثمائة ألف مرّة فإنّها تفيض الأشعة والحرارة والحياة لا لأنّ عمل فراشة على تجفيف جناحها بأشعة الشمس، أو قيام زنبور بالاستمتاع بحمام شمسى خلف خليته له أدنى تأثير على مصير الشمس، بل إنّها مصدر النور، وإفاضة النور من لوازم ذاتها، غاية الأمر أنّ الشمس ليس لها من اختيار فى هذه الافاضة، بينما للّهمثل هذا الاختيار.

التكامل فى قلب الموت:

هل يستمر تكامل الوجود الإنسانى لما بعد الموت؟ مع العلم إننا نشاهد بوضوح أنّ التكامل البدنى للإنسان يستمر حتى سن الأربعين ثم تبدأ المرحلة التنازلية حتى تصل الصفر حين الموت فينتهى كل شىء. لكن لا ينبغى نسيان أنّ موتنا إذا كان يعنى نهاية الحياة وما بعد سر الوجود، ص: ۱۶۴ الموت هو الظلام التام والعدم، فقد حصلت هنا عملية تناقض التكامل (مع العلم إنّ هذا الحساب صحيح من الناحية الفردية، أو من حيث النظرة الفردية، ولكن من الناحية العلية فان النوع الإنسانى يواصل مسيرته التكاملية وآثار الناس باقية مهما كانت صغيرة، كما تواصل البشرية، مسيرتها رغم ذهاب الأفراد ولا تعرف مسيرتها التعثر والتوقف). ولكن إذا نظرنا إلى الموت على أنّه نوع ولادة ثانية (كولادة الفرخ من البيضة والإنسان من رحم الأم) وانتقال من وسط محدود إلى وسط يفوقه سعة بعدة أضعاف، فإنّ مواصلة المسيرة التكاملية ستكون حتمية حتى فى عالم البرزخ و القيامة. وليس لدينا أى دليل على توقف هذه المسيرة التكاملية للروح بعد الموت، بل سوف تستمر هذه المسيرة نحو اللانهاية (نحو الذات القدسية الطاهرة). الختام / ۷۳ الصدارة فى التفكير: ۷۷ سر الوجود، ص: ۱۶۶ لا-يمكن الاكتفاء بالاعتماد/ ۸۱ على الحس بمفرده/ ۸۱ ذريعة أخرى مهمة: ۸۳ الحواس لوحدها تخوننا: ۸۵ و نقرب المطلب أكثر: ۸۷ إعترافات الفلسفة الحسية والبراغماتية: ۸۸ جواز سفر لعالم ماوراء الحس/ ۹۱ العالم الحسى فى اتساع دائم: ۹۴ دور العقل فى تسديد الحس: ۹۶ الاعجوبة الصناعية لعصرنا/ ۱۰۱ غرفة ذات أسرار/ ۱۰۹ أغرب إرشيف عالمى/ ۱۱۷ تصنيف الحافظة: ۱۲۱ سرعة الاستذكار: ۱۲۲ إعجاز الحافظة!/ ۱۲۵ معجزة الحافظة: ۱۲۸ التداعى؛ القضية العجيبة الأخرى ۱۲۹ نعمة النسيان: ۱۳۰ سر الوجود، ص: ۱۶۷ هل من بداية و نهاية للعالم!/ ۱۳۳ سرّ آخر: ۱۳۵ قضية المصير/ ۱۴۱ على سبيل المثال …: ۱۴۶ فلسفة الخلقة/ ۱۵۳ نعم للجزئيات، لا للكليات! ۱۵۶ لماذا جئنا من العدم؟ ۱۶۰ ما فائدة التكامل؟ ۱۶۱ ما استفادة الخالق من وجود المخلوق ۱۶۲ التكامل فى قلب الموت ۱۶۳

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – عليهِ

السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ" – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز "القائمیّة "للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت – علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی. - من الأنشطة الواسعة للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَی ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان للتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹